المشرق

السنة الثلاثون — اذار ١٩٣٢

الرُّتب الكهنوتيّة

في

الطائفتين المارونية والسريانية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

١

توطئة

اطنبت الصحف اللبنانية في وصف الاحتفال التاريخي الشائق الذي جرى صباح الاحد ١٠ كانون الثاني بكنيسة سيدة بكركي، مقام البطريركية السريانية المارونية، في فرصة ارتقاء السيد الاثيل مار انطون عريضة، مطران طرابلس، السامي الاحترام، الى عرش البطريركية الانطاكية. وقد أُتيح لنا حضور ذلك الاحتفال النادر الذي ازداد رونقه وبهاؤه بحضور قاصد رسولي، وبطريركين، ونحو عشرين مطراناً، وجم غفير من الاكليروس، وأرباب المناصب الدينية والمدنية. فخيّل الينا انّا

في كنيسة مار بطرس الكبرى بانطاكية ، حاضرون تتويج احد بطاركتها المغبوطين ، نسمع الاحبار ينشدون التراتيم السريانية الرخيمة ، وهم محتفون بالمنتخب الجليل ، ناشرون بين ايديهم كتباً سريانية قيمة قديمة ، جرياً على عادات السلف ؛ يتناوبون في تلاوة الصلوات ، مشتركين في رتبة جلوس البطريرك الجديد على السدة الانطاكية وتسليمه عصا الرعاية البطريركية.

واذ كنا نتتبعهم في ترنيم الاغاني السريانية الطقسية ، ونقابل ما يقولونه مع ما يقوله اساقفة طائفتنا السريانية في مثل هذا الاحتفال المقدس ، خطر لنا ان نكتب شيئاً عن طقوس الرتب الكهنوتية التي كانت وما برحت جارية في كلتا الكنيستين السريانيتين الشقيقتين بلغتهما وطقسهما وعاداتهما وزيهما واعيادهما واصوامهما . وقبل الشروع في سرد ما عولنا عليه ، رأينا ان نورد كلمة عن اصل الطقس السرياني الانطاكي فنقول :

اصل الطقس السرياني الانطاكي

لا مشاحة ان اول طقس كنسي انما ظهر في اورشليم ، ثم في انطاكية عاصمة الشرق ، باللغة السريانية الشائعة يومئذٍ في فلسطين وسورية كلتيهما ، كما أثبته جميع الكتبة المدققين شرقيين وغربيين[1] . ويتلخص من ذلك ان الملل السريانية الاربع اعني الملكية[2] (الروم) ، والمارونية ، والسريانية الشرقية (الكلدان)[3] ، والسريانية الغربية ، كان طقسها في الاصل واحداً ،

---

١) معجم اللاهوت الكاثوليكي للاب ڤاليه (ص ١٤٠٢) ؛ والمقالة الثالثة من كتاب النصارى للعلامة السيد اقليميس يوسف داود ، مطران دمشق (ص ٣٥) ؛ ومقال البحاثة المدقق الاب لامنس اليسوعي في العدد الاول من المشرق ١٩٣٢ ص ١٤ بعنوان « سورية في زمن الفتح العربي » اذ اثبت مصرحاً : « ان الموارنة ادخلوا الى لبنان اللغة الارامية (السريانية) التي اصبحت لغة الشعب السوري الحقيقية الجارية في احكام معاملاته التجارية . . . وفي تأدية واجباته الدينية في الكنائس . . . من انطاكية عاصمة البلاد الى اورشليم . . . »

٢) اطلق السريان اسم « ملكيين » على اتباع المجمع الخلقيدوني المقدس لان ملوك قسطنطينية كانوا من انصاره. ٣) سمى البابا اوجانيوس الرابع ، عام ١٤٤٥ ، المرتدين من السريان النساطرة « كلداناً » (المشرق ٣ [١٩٠٠] ٨٢١)

كما كانت لغتها ايضاً واحدة . بيد انه مع تمادي الاحقاب تفرّدت الطائفة السريانية الشرقية بطقس خاص بها ، منذ انفصالها عن الكنيسة الجامعة ، في اواسط القرن الخامس . اما الطائفة السريانية الملكية فقد بدّلت طقسها الانطاكي ، في القرن التاسع او العاشر ، بالطقس البوزنطي اضطرارًا او تحبّباً او تزلّفاً ، واستخرجته من الاصل اليوناني الى السرياني مثبتةً فيه بعض عبارات او الفاظ طقسية يونانية ، على ما صرّح بلسمون البطريرك الانطاكي الملكي في القرن الثاني عشر ، وكان يومئذٍ قاطناً في قسطنطينية ، فقال : « ان كنائس الملكيين في سورية تبعت في عهده بيعة قسطنطينية في ليترجيّتيها » المنسوبتين الى مار باسيليوس ومار يوحنا فم الذهب العظيمتين . والاّ ، فلو لم تتبعها في ذلك ، لظلّت الى هذا الحين تستعمل طقسها السرياني القديم الذي لا يسع احدًا ان ينكر انه اقدم من الطقس اليوناني ، الاّ من كان جاهلًا تواريخ الكنائس الشرقية بالمرّة .

بناء عليه بقيت الكنيسة المارونية والكنيسة السريانية الغربية محافظتين اشدّ الحفظ على طقسهما السرياني القديم ، وعلى لغتهما السريانية البحتة الى هذا اليوم . اما طقسهما فهو اقدم من سائر الطقوس البيعية لا في ليترجيتهما المنسوبة الى مار يعقوب[1] فحسب ، بل في صلواتهما القانونية التي تحتوي على الشيء الكثير من مصنّفات الآباء الذين عاشوا في القرن الرابع او الخامس او السادس كمار افرام (✝ ٣٧١) ملفان البيعة الكاثوليكية ، ومار شمعون برصباعي الشهيد (✝ ٣٤١) ، ومار ماروثا الميافرقيني (✝ ٤٢١) ، ومار ربولا

---

١) قرأنا في مخطوط دير الشرفة النفيس ، المنسوخ عام ١٣٢٤م ، ص ٦٧٢ ، فقرة منسوبة الى مار افرام تفيد ان اول قداس أقامه سمعان الصفا كان اول اربعاء من اسبوع الرسل ، وهذا نصّها : « ܩܘܪܒܐ ܩܕܡܝܐ ܩܕܝܫܐ ܕܐܬܥܒܕ ܒܥܠܡܐ ܘܣܡܟܐ ܕܫܠܝܚܐ ܒܝܘܡ ܡܫܝܚܐ ܕܫܡܥܘܢ ܟܐܦܐ ... ܘܡܛܠ ܕܗܘ ܗܘܐ ܩܘܪܒܐ ܩܕܡܝܐ ܒܥܠܡܐ : ܐܝܟ ܕܗܘܐ ܒܗ ܩܘܪܒܐ » فاذا صحّت هذه الرواية اصبحت ليترجيّة مار بطرس ، التي يعتبرها السريان الموارنة اعتبارًا عظيماً ، اقدم من ليترجيّة مار يعقوب عينها . وعلى كل فكلتا الليترجيّتين السريانيتين اقدم من ليترجيّتي قسطنطينية اليونانيتين .

الرهاوي (✝ ٤٣٥) ، ومار اسحق الانطاكي (✝ ٤٦٠) ، ومار يعقوب السروجي (✝ ٥٢١) الخ.

اما صلوات طقس البيعة اليونانية فاحدث من الصلوات الطقسية السريانية لان معظمها من قلم القديس يوحنا الدمشقي في منتصف القرن الثامن . ومنها ما أُنشئ في القرن التاسع ومبادئ القرن العاشر[1] .

وقد حرص السريان الموارنة والسريان الغربيون على طقسهم الانطاكي القديم حرصهم على اثمن تراث واغلى كنز ، بخلاف اخوانهم السريان الملكيين الذين غيّروا ، كما قلنا ، وبدلوا طقسهم الانطاكي بالطقس البوزنطي . ولولا سطوة ملوك قسطنطينية ونفوذهم ، لظلوا الى هذا الحين يستعملونه بلا ريب .

ولا يُعبأ ببعض الفاظ يونانية تسرّبت في الطقسين السريانيين القحّين . فان ذلك لم يحدث الا بعد القرن الخامس ، وفي الكنائس الكبرى فقط ، وفي الاحتفالات المشهودة العمومية كالاحتفال مثلاً بدخول المطران اول مرة الى ابرشيته[2] كي يفهم الشعب عموماً ما يقال . على حدّ ما جرى في الاحتفال بجلوس غبطة البطريرك الانطاكي الماروني الجليل ، اذ لفظ احد الاحبار الافاضل خطاباً فرنسياً وجهه الى ارباب الدولة المنتدبة . فضلاً عن ان السريان في القرون الوسطى كانوا يتسابقون الى درس اليونانية ويبالغون في حذقها ، وينقلون منها عدة تآليف الى لغتهم[3] .

وكيفما كان الامر فان الصحف السريانية الطقسية المصونة في خزائن عواصم اوربة وغيرها اقدم واكثر من الكتب الطقسية اليونانية . لان المخطوطات الطقسية الملكية ، سريانية ام يونانية ، لا يمكن ان يسبق عهدها القرن الحادي عشر ، ذلك يوم اخذ الطقس اليوناني قراراً في البيعة الملكية الانطاكية . وناهيك ان الملكيين في سورية يتعذّر عليهم ان يدلّونا او يطلعونا على كتاب طقسي نُسخ باليونانية في سورية ، حالَ كون دور الكتب تحوي الى هذا اليوم

١) النصارى : ٨٥

٢) المقتطفات ܚܘܡܬܐ لغبطة السيد البطريرك اغناطيوس افرام رحماني ٣ : ١

٣) اطلب مقالتنا في المسرّة (١٩٢٠ : ٤٩٥ و٥٥٧)

مئات من كتبهم الطقسية في السريانية ، كمخطوطات دير طورسينا ، ودير مار بنطاليمون بانطاكية ؛ ومخطوطات دير القديسة تقلا ، ودير الشاغورة بصيدنايا التي حمل الهوس متولي ذينك الديرين فالقوا جميع صحفهما السريانية الثمينة في التنور واحرقوها باسرها تخوفاً من ان يغتصبها السريان[1] . ومن هذه الكتب السريانية الملكية ما برح الى يومنا مصوناً في دير الشرفة ، وفي بكركي وقنوبين ، وفي دير الآباء اليسوعيين ببيروت ، وفي مكتبة غبطة بطريركنا الانطاكي مار اغناطيوس جبرائيل الاول الجزيل الطوبى ، وفي غيرها .

ونضيف الى ذلك كله ان السريان الملكيين في سورية ظلوا يقضون طقوسهم البيعية في السريانية حتى اواخر القرن السابع عشر . بل ان احد كهنة الملكيين الارثذكس في قرية معلولا بقي يقدّس في السريانية حتى اواسط القرن الماضي ، كما اورد العلّامة السيد اقليميس يوسف داود في قصاراه (ص ٣٦) .

ألا يحق لنا اذاً ، بل ألا يتحتم علينا بعد هذا ، ان نطري آباء الطائفتين السريانيتين الشقيقتين ، ونبدي لهم حميم الشكر على ما اتخذوه من الذرائع وما كابدوه من الاعراق والمصاعب صوناً للغتهم الشريفة وضناً بطقسهم الانطاكي الرسولي ؟ بلى ! فقد اوجبوا تدريس السريانية في جميع مكاتبهم ومعاهدهم وأديارهم ، ومنعوا منعاً باتاً قاطعاً تبديل طقسهم وعاداتهم .

هذا المجمع اللبناني الشهير، الذي عُقد عام ١٧٣٦ في دير لويزة بلبنان، فانه يكرّر مرات وجوب تعليم السريانية في المدارس . قال في الصفحة ٢٢[2] : «يجب على السيد البطريرك السامي الاحترام ان يعهد الى رجال اكفاء ... ان يضعوا ... كتاباً في قواعد اللغة السريانية ... يعمّ استعماله في المدارس الابتدائية » . وامر المعلمين (ص ٥٣٥) : « ان يرعوا النظام العامّ فيعلّموا الاحداث في المدارس اولاً القراءة والكتابة في السريانية ... وقواعد النحو والصرف في السريانية » . وكتب

١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها للكاتب الاديب حبيب زيات . والمشرق ٥ [١٩٠٢] : ٩٧ ؛ و١١ [١٩٠٨] : ٦٦١ .

٢) تدلّ الارقام على صفحات الكتاب المطبوع في جونية عام ١٩٠٠ ، نقل السيد يوسف نجم الحميد الاثر .

العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الخالد الذكر في كتاب الشرطونيات (ص١٩٦) قائلًا: « فليتعلم الشامسة الصغار القراءة السريانية ومطالع الالحان.. مجتهدين في ان ما يقرأونه على الشعب يفهمونه ». اما بشأن الطقس فقد قال آباء المجمع اللبناني (ص ٢٣) ما نصه: « يحظّر هذا المجمع المقدس على الرؤساء... وغيرهم ايًا كانوا ان يتساهلوا في مسّ الطقس بشيء من الزيادة او الحذف ...».

وبمثل ذلك حثم آباء الطائفة السريانية في مجمع الشرفة (ص٤٣و٤٤و٢٣٧)[1] الذي عقدوه عام ١٨٨٨، موجبين انعاش اللغة السريانية وتعميم معرفتها بحيث لا تخلو مدرسة من مدارس الطائفة من ان تعلّمها. وقس على ذلك مسئلة الطقس.

ليت اماني هولاء الآباء النبلاء تتمّ حقيقة. اذًا لانهضوا لغتهم الشريفة من كبوتها، وأعادوا طقسهم الجليل الى سالف مجده!!!

بعد هذا التمهيد ناخذ في البحث عن طقوس الرتب الكهنوتية في كلتا الطائفتين مستندين في ذلك بادئ بدء الى مجموعة العلامة السيد يوسف لويس السمعاني، التي نشرها في رومية عام ١٧٤٩، والى شرطونيات السيد اسطفانس الدويهي، والى اللمعة الوفية للسيد يوسف دريان. والى المجمعَين اللبناني والشرفي، مثبتين اصل تلك الرتب، ملمّعين بما تسرّب اليها مع كرور القرون من الحشو والاضافة.

طقوس الرتب الكهنوتية اجمالًا

يتولى الاسقف دون من سواه جميع الرتب الكهنوتية، وتُسمى في السريانية ܡܣܠܩܢܘܬܐ = ترقية، وܣܝܡ ܐܝܕܐ = وضع اليد، وܟܝܪܘܛܘܢܝܐ = شرطونية. وكان الاساقفة قديمًا يرخصون لرؤساء الديورة ان يرقوا القسوس الى مناصب برادطة وخوارنة وخوريفسقفوسين. لكن آباء المجمع اللبناني (ص ٣٣٩) الغوا تلك العادة، وأذنوا لرؤساء الاديار ان يلبسوا التاج، ويباركوا المذابح، وحياض المعمودية ويرسموا المرتلين والقارئين فقط. وكانت هذه

---

١) تدلّ الارقام على صفحات الكتاب المطبوع في دير الشرفة، عام ١٩٢٢.

عادة رسامة رؤساء الاديار للمرتلين والقارئين جارية في الكنيسة السريانية ايضاً، فنسخها آباء مجمع الشرفة (ص ١٧٢).

ولتكميل الرسامات في البيعة السريانية الانطاكية شروط اخصّها :

١ً ان يحتفل بها الحبر متوشحاً بحلّته كلها اثناء القداس الالهي، وفي الكنيسة. ولذا يقول: ܐܬܥܠܝ ܒܥܕܬܐ ܩܕܝܫܬܐ ܕܐܠܗܐ=ارتقي في بيعة الله المقدسة وينبغي ان يبدأ بالرسامة بعد الرفعة، قبل تناوله القربان الاقدس.

٢ً يتحتّم على المتأهب للرسامة ان يجثو على احدى ركبتيه او على كلتيهما معاً حسبما تتطلّب الرتبة التي يُرقى اليها. ويُستثنى من ذلك عند السريان المزمّر او المرتّل، فانه يظلّ واقفاً.

٣ً يجب ان ينادى باسمه واسم مذبح الكنيسة الكبير الذي يرتسم عليه.

٤ً ان يرفّ الحبر بيديه على الاسرار وعلى المرتسم، ويشخص عينيه الى السماء عند تلاوته صورة الرسامة.

٥ً ان يضع يمينه على هامة المنتخب في الرتب الكبيرة فقط، ويتلو الصورة. ووضع اليد شرط ضروري لصحة الرسامة، وهو متسلسل في الرتب الكهنوتية بسلسلة غير منفصمة. ويشير الى ذلك ابونا مار افرام، صنّاجة الروح القدس، بقوله: «ظهر العليّ على جبل سينا ووضع يده على موسى وموسى وضعها على هارون. وتسلسل هذا الوضع الى يوحنا المعمدان. ويوحنا وضع يده على المخلص في نهر الاردن. والمخلص وضع يده على رسله»[1]. وكذا شرّاح الاسرار طرّاً وفي جملتهم العلامة الدويهي في الشرطونيات (٢٢٢).

٦ً ان يحتفل بالدرجات الكبيرة يوم احد او عيد بطالة، كل درجة بمفردها. اما الدرجات الصغيرة فيجوز ان تجري في اي يوم كان، وبجملتها معاً.

٧ً ان يختم الحبر بيمينه بشكل صليب جبهة المنتخب في الدرجات الصغيرة.

٨ً ان يرقّي المنتخب درجة فدرجة.

٩ً ان يناوله الاسرار المقدسة ويحيّيه.

---

١) ܓܠܐ ܪܡܐ ܥܠ ܛܘܪܣܝܢܝ. ܘܣܡ ܐܝܕܗ ܥܠ ܡܘܫܐ الخ. ܘܝܘܚܢܢ ܕܐܝܬܘܗܝ ܡܥܡܕܢܐ. ܥܠ ܦܪܘܩܢ ܣܡܗ الخ. وكلا النصّين محفوظان في الطقسين معاً.

١٠ً ان يكتب في دفتر خاص اسم المنتخب واسم ابيه ولقبه ووطنه وعمره ومكان مولده ، والبيعة التي يُرسم عليها ، وتاريخ رسامته سنة وشهراً ويوماً . وان يسجّل ذلك بالسريانية كما نصّ مجمع الشرفة (ص ١٦٠) هكذا بما تعريبه :« رقّى الروح القدس فلان بن فلان فلان من مدينة او قرية ... مرتلاً او قارئاً الخ. لكنيسة... على مذبح ... في مكان ... بيد فلان الاسقف او المطران او البطريرك . في اليوم ... والشهر ... والسنة ... مسيحية . »

وقد ضبط السريان والموارنة الرتب الكهنوتية الاصلية او الاولية ، وجعلوها تسع رتب وفقاً لرتب الاجناد العلوية ، على هذه الصورة:

الملائكة	المزمّرون
رؤساء الملائكة	القارئون
الرئاسات	الرساليون
السلطنات	الشامسة
القوّات	القسوس
السادات	الخوارنة
الكراسي	الاساقفة
السواريف	المطارنة والجثالقة
الكواريب	البطاركة (١

قال المجمع اللبناني (ص ٢٨١) :« كل ما عددناه آنفاً من الرسامات او التبريكات ... نامر بحفظه التام بالتدقيق والاجتهاد على حدّ ما ألقاه الينا آباؤنا وعلى ما هو مرسوم في كتاب شرطونية كنيستنا الانطاكية بالسريانية ولا نسمح بان يُغفل شيء منه . »

ثم ان آباء الطائفتين قسموا الرتب الكهنوتية ثلاثة اقسام وهي : الشماسية ، والقسيسية ، والحبرية. فالشماسية تشتمل على الدياقونية ، والرسالية، والقارئية ، والمرتلية. وتشتمل القسيسية على القسيسية ، والبرذيوطية ، والخورية ، والخوريفسقفوسية . وتشتمل الحبرية ، او رئاسة الكهنوت ، على الاسقفية ،

١) الدويهي ٩٦ ، وشروح البطريرك يوحنا بن وهبون (+ ١١٩٣) الخ .

والمطرانية ، والجاثليقية ، والبطريركية . وقد تفرّد السريان دون الموارنة برتبة الجاثليق بعد انفصالهم من الكنيسة الكاثوليكية، وهم يسمونه مفرياناً[1]

ثم ان لكلّ من الدرجات رتبة خصوصية: وهي ١ً رتبة المرتّل. ٢ً رتبة القارئ. ٣ً رتبة الرسائلي. وهي من الرتب الصغيرة لانها لا تشتمل على وضع اليد بل تُحسب ترقية . وكانت هذه الدرجات فيما سلف تُمنح منفصلة اي بعد فترات بين درجة ودرجة الّا ان يرى الحبر مزيد فائدة في الخلاف (المجمع اللبناني ٢٥٤) وعلى ذلك آباء مجمع الشرفة ايضاً كما نوّهنا.

٤ً رتبة الشماس. ٥ً رتبة القسيس. ٦ً رتبة الاسقف. وهذه الرتب الثلاث هي من الرتب الكبيرة المقدسة، لانها تحتوي على وضع اليد ولا تُمنح الا متقطعة وفي ايام الآحاد والاعياد كما قلنا.

اما رئاسة الشامسة (الارخذياقونية) والبرديوطية والخورية والخوريفسقفوسية (والمفريانية) والبطريركية فليست رسامات بل وظائف . ولذا لا تُمنح الا بطريقة التبريك المرسومة في كتاب الحبريات (المجمع اللبناني ٢٨١).

---

١) اطلب مقالتنا في المشرق (٢٢ [١٩٢٤] : ١٨٣) بعنوان «جثالقة المشرق ومفارنة السريان».

(للبحث صلة)

انتخاب بطريرك ماروني

في القرن التاسع عشر
وتدخل قنصل فرنسة في ذلك

بقلم الشيخ سليم الدحداح

١

عطفاً على مقال سبق نشره في مشرق شباط المنصرم، نقول ان المسيو اوجين بوجاد انتظم في سلك مأموريات الوزارة الخارجية الافرنسية، وتولى بضع سنوات اعمال القنصلية الفرنسوية العامة في بيروت، وذلك بعد خروج الجيوش المصرية من لبنان وسورية، وعودة بلادنا تحت الحكم العثماني.

ولا يجهل احد كم كان عظيماً ونافعاً للمصلحة العثمانية قيام اللبنانيين ضد اميرهم، الامير بشير الشهابي الكبير، وحلفائه المصريين. وقد كانت ثورتهم بايعاز وتنشيط البطريرك يوسف حبيش، فسهلت نزول الجيوش العثمانية في جونية، وساعدت عمل الاسطول الانكليزي. فكانت مكافأة اللبنانيين من قبل تركية وانكلترة ان اتحد رجال هاتين الدولتين على خرابهم والغاء استقلالهم والعمل على ايقاع الشرد بهم: اما تركية فكانت تتعمد الغاء استقلال هذا الجبل وامتيازات امرائه ومشايخه ووضعه، مثل الاراضي المجاورة له، تحت حكمها المباشر. وكانت انكلترة تساعدها على ذلك نكاية بالموارنة الذين رفضوا قبول حمايتها التي عرضتها عليهم. وفي ذلك الوقت، اي من سنة ١٨٤٠ يوم خروج المصريين من سورية حتى بداية حرب القريم سنة ١٨٥٣، كانت تركية مستسلمة تمام الاستسلام لارادة انكلترة خاصة في ما يتعلق بشؤون سورية. حتى ان انكلترة كانت عينت في بيروت مأموراً سياسياً وخولته

سلطة اكبر من سلطة القنصل العام ليشرف على اعمال السياسة في سورية[1] .
ومتى عرف القارئ الكريم ان ممثلي النمسة كانوا – بحسب تعليمات البرنس دي مترنيخ – يوافقون على ما يريده قناصل انكلترة وان ممثلي بروسية لم يكونوا يكترثون لما يجري في سورية فضلاً عن ان دولتهم لم يكن لها شأن في السياسة الكونية ، تبيّن له عظم نفوذ قناصل انكلترة ؛ اذ لم يبقَ امامهم سوى قناصل روسية ، وقناصل فرنسة . فهؤلاء لم يكونوا متقادين لقناصل انكلترة ، انما عدم اتفاقهم بعضهم مع البعض جعل البريطانيين اقوى منهم واكثر نفوذاً .

فالقناصل الروس ما كانوا ليهتموا كثيراً بالموارنة ومصالحهم حتى يعضدوا دائماً قناصل فرنسة ، انما كان ميلهم الغريزي يبعدهم عن الانكليز فيقتربون احياناً كثيرة من سياسة القناصل الفرنسويين . وفي غالب الاحيان كانوا يقفون موقف الحياد بين الفريقين ويقترحون اقتراحات من شأنها التوفيق بين نظريتيهم المتماكستين . وعليه كان قناصل فرنسة وحدهم ينفردون بالمدافعة اشدّ الدفاع عن قضية الموارنة ، وعن حقوق جميع المرسلين الكاثوليك من اي تابعية كانوا . ومعلوم ان الولاة العثمانيين كانوا مشهورين بالخداع والمراوغة ، ويشددهم قناصل الانكليز في خطتهم . ولما كانوا لا يخافون الا القوة ، كانوا يزدادون تمسكاً بخطتهم عند مشاهدتهم الاساطيل الانكليزية تملأ البحار . فترى من هنا كم كان صعباً وحرجاً مركز القناصل الفرنسويين ولاسيما في تلك المدة التي كانت ترتكز فيها سياسة الملك لويس فيليب على الاتفاق الودّي مع انكلترة ، وتجنب المشاكل الدولية ، حتى ولو كان في ذلك الحطّ من نفوذ فرنسة .

لكنّ الرجل الذي تربّى على عزة النفس ، والوطني الحريص على شرف

---

١) هذا المشدد هو هنري روز . كان ضابطاً في الجيش الانكليزي البري ، ويُعرف في تاريخ سورية باسم الكولونيل روز . وقد اشتهر بعد ذلك في حرب القرم . ثم قمع ثورة الهند الطيبة في سنة ١٨٥٧ ، وتولى في سنة ١٨٦٠ قيادة الجيوش الانكليزية العامة في الهند . وفي سنة ١٨٦٦ ، دخل مجلس النبلاء باسم «البارون سراتنارن» . وتولى قيادة الجيش العامة في ارلندة حيث قمع ثورة «الفنيان» في سنتي ١٨٦٦ و١٨٦٧ . واخيراً توفي في باريس عن ٨٦ عاماً في سنة ١٨٨٥ ، بعد ان حصل على رتبة فلد مارشال .

علمه وبلاده ، يبقى جسوراً ولا يمكنه تغيير عاداته مهما ضعفت سياسة رؤسائه. وقد اشتهر بوجاد مدة وكالته بالجسارة والشهامة مع المرونة والسياسة. ويكفيك ان تعلم انه ، مع وجود شكيب افندي ، وزير خارجية تركية ، مندوباً سامياً في لبنان وسورية ، وعند مراوغة والي ايالة صيدا وسرعسكر الجيوش العثمانية ، ارسل بوجاد ، باسمه الخاص ، قطعة حربية افرنسية الى مياه جونية فانزلت عدداً من بحارتها الى البر ، واستخلصت ترجمانه خليل المدور من ايدي العساكر الاتراك بعد ان ولوا الادبار مع قائدهم ابرهيم باشا(1). وقد امتدحه الكونت دي مونتالبر في ندوة النبلاء. وطلب من رئيس الوزارة الا يكون هذا المديح الصادر من فم رؤساء المعارضة سبباً لغيظ الحكومة منه. فأكد له رئيس الوزارة انهم ممدحوه على هذا العمل الذي فيه حفظ كرامة فرنسة ، وسيكافؤونه بعد ذلك.

* * *

في مدة وجود هذا الرجل في بيروت ، حدثت ازمة بطريركية مارونية ، وحكمت الظروف بتدخله . وقد كان لهذا التدخل نتيجة حسنة جداً . وهو موضوع كلامنا الآن.

ان هذا الرجل ، اي القنصل بوجاد ، وضع في سنة ١٨٦٠ تأليفاً دعاه « لبنان وسورية بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٦٠ » ، قسمه الى ثلاثة اقسام. عنوان القسم الاول « مأموريتي في سورية » ، وعنوان القسم الثاني « انتخاب بطريرك ماروني » ، واما القسم الثالث فمداره على «سياحة في بادية سورية وداخليتها.» ويهمنا الآن من هذه الاقسام الثلاثة القسم الثاني، وهو انتخاب بطريرك ماروني.

قال المؤلف : « انه منذ الغاء الامارة اللبنانية بسقوط الامير بشير الكبير وانقسام الحكم بين قائمي مقام ، احدهما ماروني ، والآخر درزي ، اصبح البطريرك الماروني صاحب اعظم مركز في لبنان . وفيه تتمثل الملة

---

(1) كانت تدعى القطعة الحربية المذكورة لابل پول La Belle-Poule ، وهي التي كانت استحضرت جثة نابوليون الاول من جزيرة القديسة هيلانة.

المارونية ديناً وسياسةً:

ثم قال في محل آخر: «لقد مثل البطريرك يوسف حبيش دوراً عظيماً في تاريخ وطنه. لكن هذا الدور لم يكن دائماً مبنياً على معرفة مصالح طائفته الحقيقية. فقد قاده حبه المتطرّف للاستقلال، مع شفقته على آلام رعيته، الى الثورة في سنة ١٨٤٠ على السلطة المصرية، ومساعدة الحملة الانكليزية العثمانية. لكنه سرعان ما تبيّن له سوء عاقبة عمله. وكثيراً ما يحدث ان النفوس السريعة الاندفاع توقعها في الشرّ والخطأ رغبتُها في حبّ الخير؛ ومتى ظهر لها غلطها، فان الندامة تتخذ لديها شكل المجازاة الصارمة التي توجبها على نفسها. وعلى هذا النهج فان البطريرك يوسف حبيش لم يتسامح قط مع ذاته فاستمرّ في يأس عظيم منذ ثبت له انه لم يُدرك مصالح طائفته الحقيقية.»

وكلّ يعلم ان هذا البطريرك، وهو مؤسس عظمة الكرسي البطريركي، قد توفي في عنفوان امره حين بلغه سوء مصير حوادث الجنوب، في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥، ولم يكن تجاوز الثامنة والخمسين من عمره، بعد ان ادار شؤون الطائفة مدة ٢٢ سنة وكانت وفاته في قنوبين ودُفن هناك.

ثم اضاف المؤلف بعد عدة صفحات، قائلاً: «لما توفي البطريرك يوسف حبيش، كان المطارنة الموارنة متوزّعين في انحاء لبنان، ومختلفين رأياً في ما يتعلق في محل انعقاد مجمعهم الانتخابي. فقد كان منهم في دير قنوبين ثلاثة وهم النائب الروحي[1]، والنائب الزمني، واسقف طرابلس[2]. ومن رأيهم وجوب عقد المجمع واجراء الانتخاب هناك وفقاً لاحكام المجمع اللبناني. ولاسيما وقد اجتمع مشايخ واعيان الجهات الشمالية، ملحّين باجراء الانتخاب هناك، مصرّين على منعهم عن مبارحة قنوبين، ومعلنين بعدم اعترافهم باي انتخاب يحدث خارجاً عن قنوبين. فخاف هولاء الثلاثة على محتويات الكرسي من النهب، اذا هم بارحوه.

١) النائب الروحي هو المطران بولس مسعد الذي سيم اسقفاً سنة ١٨٤١

٢) النائب الزمني هو المطران سمعان زوين. اما مطران طرابلس فكان يدعى بولس كساب، سامه البطريرك يوسف حبيش اسقفاً على طرابلس خلفاً له، منذ سنة ١٨٣٦.

«وكان موجوداً في كسروان كلٌ من السيد يوسف الخازن مطران الزوق[١]. وابن عمه مطران دمشق انطون الخازن[٢]، والسيد فيلبوس حبيش، شقيق البطريرك المتوفى، ومطران جزين[٣]. وكانوا يرغبون اجراء الانتخاب في دير بكركي نظراً لمشقة السفر الى قنوبين، وبسبب الظروف السياسية الحاضرة. وكان مطران صيدا يالئهم في رغبتهم هذه[٤].

«اما مطران عكا شرقاً الذي كان قائماً بوكالة ابرشية بيروت[٥]، ومطران قبرس[٦]، فانهما كانا في الظاهر يقولان باستعدادهما لاتباع رأي الاكثرية. الا انهما، في باطن الامر، كانا يرغبان اجراء الانتخاب في كرسي قنوبين

«وكان رئيس اساقفة اللاذقية شرفاً موجوداً في رومية[٧].

«ولما طال امد الخلاف واستفحل الامر، خشي القاصد الرسولي سوء النتيجة. ولما كان يعرف شخصياً قنصل فرنسة العام في بيروت (اي مؤلف الكتاب) منذ وجودهما معاً ردحاً من الزمان في اللاذقية، فقد حرّر له يدعوه لزيارته في مركز القصادة في الزوق للمداولة في ما يجب عمله، حسماً لهذا النزاع بين

---

١) الصواب انه مطران دمشق، وكان يقيم في زوق مكايل لانه كان في الوقت ذاته رئيساً لدير البشارة فيها.

٢) الصواب: مطران بعلبك. والمطران انطون هذا كان قد سيم اسقفاً منذ سنة ١٨٠٥، واستلم ابرشية بعلبك منذ سنة ١٨٠٨، وكان شيخ الاساقفة سناً وسيامة.

٣) يريد به رئيس مدرسة عين ورقة، المطران يوسف رزق من جزين، ورئيس اساقفة قورش شرفاً.

٤) مطران صيدا كان حينئذٍ المطران عبدالله البستاني، سيم اسقفاً منذ سنة ١٨١٩، فكان ثالث الاساقفة سيامة.

٥) هو المطران طوبيا عون. وكان سيم اسقفاً من يد البطريرك المتوفى في سنة ١٨٤١، في وقت واحد هو والسيد بولس مسعد، والسيد فيلبوس حبيش.

٦) هو المطران يوسف جعجع أصغر الاساقفة حينئذٍ سناً ورسامة، لانه ولد سنة ١٨٠٨، وسيم اسقفاً سنة ١٨٤٤.

٧) هو المطران نقولا مراد من عرامون كسروان. سامه رئيس مجمع نشر الايمان في رومية اسقفاً سنة ١٨٤٣. وقد نسي المؤلف ان يذكر بين الاساقفة اسم مطران حلب، وقد كان يدعى المطران بولس اروتين، من حلب. كان قد سيم اسقفاً منذ سنة ١٨٢٩.

الاساقفة الموارنة . والقاصد الرسولي كان اسقفاً اسباني الاصل يدعى السيد ڤيلارديل، وكان عنوان اللطف والدعة ، رخيم الصوت ، شديد التقوى والغيرة . »

فلبّى القنصل بوجاد دعوة القاصد الرسولي ، وامتطى جواده يرافقه قواصه وخادمه. وكان جميعهم مسلحين وجازوا قرية زوق مكايل ، فوصلوا دار القصادة الرسولية ، في المحل المعروف فيها باسم التراب ، عند الغروب . فأثر في القنصل ما سمعه من قرع اجراس كنائس اديار الزوق والقرى المجاورة التي كانت اصداء الوديان تردد نغماتها. وذلك ايذاناً بصلوة التبشير عند غروب الشمس . خصوصاً وقد كان مضى عليه سنوات عديدة ، وهو محروم من سماع مثالها ، لوجوده في مدن اسلامية يمتنع على النصارى استعمال الجرس فيها.

فاستقبله القاصد بكل حفاوة. وكان عنده رئيس رسالة سورية لليسوعيين، الاب مبارك بلانشه الشهير . فقضى السهرة مع نيافة القاصد ، والرئيس اليسوعي، يتبادلون الحديث في مسألة انتخاب البطريرك، وقد تبيّن لهم ما يقوله هنا بالحرف الواحد :

« كان الرأي العام في الطائفة المارونية مجمعاً على مرشحين اثنين يعتبرهما اكثر اهلية من سواهما من الاساقفة لتسنم المنصب البطريركي ، بعد السعيد الذكر البطريرك يوسف حبيش . وهما المطران بولس اسقف طرسوس شرفاً ، الذي كان نائبه الروحي ، والسيد يوسف الخازن . ينتمي الاول الى عائلة من الفلاحين في جبل كسروان. كان قد أرسل الى رومية ، وتلقى بعض الدروس في مدرسة مجمع نشر الايمان ، ثم عاد فانهاها في مدارس الجبل . وقد كان له نفوذ عظيم جداً على البطريرك المتوفى ، وكان له حزب كثير العدد خاصة في جهات شمالي لبنان التي كان يقيم فيها البطريرك المشار اليه . اما الآخر ، اي السيد يوسف الخازن ، فهو من عائلة تُعدّ من اشهر الاسر اللبنانية . فنظراً لثروته ، ولكثرة عدد اعضاء عائلته ، ولقوة حزبه ، ونفوذ ذويه ، ووجوده على رأس ابرشية مرغوب فيها ، كان اقرب الى النجاح من مزاحمه . الا ان سكان طرابلس وجبة بشري كانوا شديدي العداوة له ، لخوفهم من هجره قنوبين اذا توصل للبطريركية . »

وعند الصباح حضر القاصد والقنصل القداس الالهي الـذي اقامه المرسل اليسوعي في معبد القصادة . وبعد ان تناولوا الطعام ، حضر لزيارة القاصد كل من السادة يوسف الخازن ، وفيلبوس حبيش ، واسقف جزين ، واسقف صيدا . فقدمهم نيافته الى حضرة القنصل . ثم اخذوا يتبادلون الحديث ، ويبدى كل منهم رأيه . فاثبت لهم السيد يوسف الخازن بان المجمع اللبناني لا يوجب حتماً اجراء الانتخاب في كرسي قنوبين . واخـذوا يتباحثون في امر التوفيق بين مطاليب فريقي الاساقفـة . وكان القاصد والمرسل اليسوعي يجيدان التكلم بالعربية ويتذاكران معهم بكل سهولة . اما القنصل فكان يفهم حديثهم ، ولكنه لم يكن يتكلم العربية . فكانا يقومان بالترجمة بينه وبين الاساقفة. « وكان المرسل اليسوعي مرتدياً ملابس كهنة الموارنة ، وعلى رأسه عمة سوداء مثلهم » (يقصد بذلك ما تدعوه طاية).

اخيراً اقترح القنصل عقد المجمع الانتخابي في دير ميفوق خاصة الرهبـانية البلدية ، لوجوده في نقطة متوسطة المسافة بين بكركي وقنوبين . وتعهـد للسادة الحـاضرين بانهم اذا وافقوه وذهبوا مع الاب پلانشه الى دير ميفوق ، فانه يذهب الى كرسي قنوبين ، ويرسل لهم الاساقفة الثلاثة الموجودين هناك. فقبل جميع السادة الزائرين هذا الاقتراح ، وشكروه على غيرته.

فنهض بعد قليل ، وودّعهم عائداً مع افراد حاشيته الى بيروت ، بعد ان وعدهم بالرجوع الى زوق مكايل لزيارة السيد يوسف الخازن في دير البشارة ، في اول يوم من شهر آب سنة ١٨٤٥.

وفي الوقت المعين عاد القنصل بوجاد الى الزوق ومعه ترجمانه ، وقوّاصان ، وطاهٍ ، وعدد من المكارين . وبعد ان استراحوا يوماً عنـد المطران يوسف الخـازن ، في دير البشارة ، سافر القنصل وحاشيته ، ومعهم السادة البستاني ، وعون ، وجعجع ، ورزق ، وانطون الخـازن ، والاب پـلانشه اليسوعي ، قاصدين قرية عمشيت . فوصلوهـا مساء وحلوا ضيوفاً مكرّمين على المرحوم مخايل طوبيا زخيا الشهير ، فاحسن ملتقاهم وضيـافتهم . وفي الصباح نهض السادة الاساقفة الخمسة والاب اليسوعي ، فامتطوا خيولهم وذهبوا صعوداً في

طريق دير ميفوق. وبعد ذهابهم ، نهض القنصل وحاشيته فامتطوا بدورهم خيولهم وتوجهوا في طريق الساحل نحو مدينة طرابلس.

اما السيدان يوسف الخازن ، وفيلبوس حبيش ، فقد غادرا الزوق بعد الاولين بيوم متوجهين رأساً الى دير ميفوق ، بدون ان يعرجا على عمشيت.

وهاك ما وصف به القنصل ثلاثة من الاساقفة الخمسة الذين رافقوه الى عمشيت فيقول عن المطران عبدالله البستاني: « انه شيخ قصير القامة لكنه لم يزل في همة الشباب. وهو كثير النشاط ، ومحب المزاح. انما تحت هذه الظواهر ، كان يختبئ طبع حديدي سخر بالمخاطر العديدة ولم يحفل بها. »

وعن المطران يوسف جعجع: « لا يختلف ظاهره عن ظاهر فلاح بسيط. فكان لاول وهلة يظهر لك كانه ساذج ، الا انه بعد قليل من التأمل كان يسحرك بلطفه وبما تراه من مخايل الذكاء على كامل هيئته. »

وعن المطران طوبيا عون: « عيناه صغيرتان لكنهما ممتلئتان لطفاً وذكاء وصدقاً. انه من اعظم الرجال الذين قابلتهم في الشرق ؛ لا يتكلم الا اللغة العربية ولكن عقله السامي جعله يدرك النبوغ الاوروبي ... وانني قليلاً ما رأيت مجتمعاً في شخص واحد ، وبدرجة واحدة ، ما وجدته فيه من البساطة واللطف والثبات والتعقل وعزة النفس والتواضع المسيحي ! ... »

(لها بقية)

لماذا افتتح العرب سورية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في الرابع عشر من شهر ايلول سنة ٦٢٩، حمل الامبراطور هرقل الى اورشليم، باحتفال لا مزيد عليه، ذخيرة الصليب المقدّس التي كان قد استعادها من الفرس. فكان ذاك اليوم يوم مجد باهر وظفر عظيم للنصرانية جمعاء. ولا يزال المسيحيون حتى الآن يعيدون ذكراه بالاحتفالات التي يقومون بها في عيد ارتفاع الصليب، وبالنيران التي يضرمها اللبنانيون كل سنة بامانة مؤثّرة فتندلع السنتها على قمم جبالهم المتتابعة.

وكانت افراح العيد لم تنتهِ بعد، عندما وصل الخبر الى هرقل ان رجال الطلائع من فرسان البيزنطيين ردّوا هجمات بضعة آلاف من شُذاذ البدو فارجعوهم الى الوراء في محلّة مُوتة، على مدخل البادية السورية، الى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الميت، قرب المكان الذي تقوم فيه اليوم بلدة الكرك (شرقي الاردن).

كانت تلك الشراذم قد اتت من المدينة التي كان قد هاجر اليها محمد، منذ سبع سنوات (٦٢٢) فاخذ يعمل فيها على جمع القبائل العربية تحت راية الاسلام. على ان تلك الحملة المضطربة العديمة التنظيم لم تأتِ بنتيجة. وكأن محمدًا سبق وادرك عقم عاقبتها، فامتنع عن مرافقة رجالها، هو وابو بكر وعمر وكبار الصحابة.

وبعد ان مضى سنتان على فشل العرب في مُوتة، اراد النبي ان يقود بنفسه الثلاثين الف عربي الذين جمعهم اذ ذاك. فسار بهم حتى موقع تبوك. فوقف

لا يجسر على التقدم ولا على المخاطرة بتخطي الحدود السورية . ولم يلبث ان رجع ادراجه مع رجاله ، ولما يستلوا سيوفهم من اغمادها . هما تجربتان عقيمتان شاء بعض المستشرقين ان يستغلوهما فيستنتجوا ان محمداً فكر طويلاً ، او على الاقل ، اراد ان يباشر فتح الشام اما الحقيقة فتختلف عن ذلك كما سنرى.

قد يذكر المطالع الكريم اسم الروائي الفرنسوي هنري دي بورنيه ، مؤلف رواية وطنية كثيراً ما مُثلت ، وهي « ابنـة رولان . فان للمؤلف نفسه رواية تمثيلية شعرية اخرى دعاها باسم « محمد » ، وقدمها سنة ١٨٨٨ للمسرح الفرنسوي «Théâtre Français» فقبلتها لجنة التمثيل في المسرح المذكور في ١٨ حزيران من تلك السنة . على انها لم تمثل قط ، لأن المراقبة الفرنسوية منعتها ، لما كان من تدخل السلطان عبد الحميد نفسه . وعلى اثر ذلك ارسل السلطان الى باريس (على قول مصدر شبه رسمي في جريدة الطان : ١ نيسان ١٨٩٠) « معبراً عن وداده الفائق للرئيس كارنو ، ولحكومته ، ولفرنسة . »

في الفصل الثالث من هذه الرواية ، يفرض هنري دي بورنيه ان العساكر البيزنطية مشت على المدينة . فيبلغ الخبر محمداً ، فيهيج اذ يرى جزع رجاله ، ويقرعهم قائلاً :

الروم على مقربة منا ؟ لقد كنت اظنهم ابعد من ان نصل اليهم . . .
ان سائر اعدائنا من فرس ومصريين ،
قررت ما سيؤول اليه مصيرهم في خططي السابقة :
انني ارى ، تحت السماء ، افضل من المدينة ، وافضل من مكة ،
انني ارى شبه الجزيرة الايطالية وشبه جزيرة اليونان .
ارى آسية تُفتح على اثر بضع معارك ، .
والقسطنطينية ، هناك ، مفتاح اوربة ،
ثم اسبانية التي يحجبها اوقيانوس مزدوج ،
ثم اعماق اوربة القاتمة !
الى هناك يجب الذهاب ، والى هناك سنذهب ،
فنضرب بمراكبنا الشامخة تلك البحار الباردة ،
ونفتح ذاك العالم الفسيح امام خيولنا المعودة الحروب .

هذا عمل الاسلام ، وهذا ما باشره بنفسي.»(١

يرى المطالع ان الروائي قد وسّع ، على غير قياس، ميدان بطله في التاريخ والجغرافية . على اننا لا نشاحن شاعراً في شعره ما دام بعض المستشرقين ، من الذين يأخذ الناس بقولهم ، جروا على الطريقة نفسها فنسبوا الى محمد ما نسبه اليه دي بورنيه ، على الاقلّ في ما خصّ سورية . وهو خطأ يتحققه من يمعن النظر في مقالنا فان الافق السياسي الذي رمى اليه صاحب القرآن لم يتجاوز قطّ حدود جزيرة العرب . يوافقنا على ذلك العالِم الاسلامي المعروف، الاستاذ سنوك هورغروني ، عضو المجمع العلمي الدمشقي . فانه القى ، في هذا الموضوع ، محاضرةً هولندية ظهرت ترجمتها الفرنسوية في مجلة العالم الاسلامي في باريس بعنوان «الاسلام ومشكلة الشعوب»[٢] . وها اننا نذكر ما جاء فيها ماسّاً موضوعنا الحالي ، قال : «لقد اظهر محمد دعوته كرسول مبعوث من الله ، لا للبشرية جمعاء ، بل للعرب وحدهم ... وان الفتوحات التي نكاد نراها عجيبة كانت ، في القسم الكبير منها ، نتيجة تلك الصدمة القوية التي اثّرها محمد في قوى الاعراب المجتمعين تحت لوائه . ولكنها نتيجة لم يكن هو نفسه ليتوقعها ، ولم تكن لتصدر عن تنفيذ خطّة قد سبق فقرّرها.» وهو قول يعبّر ، كما يرى المطالع ، عن النظرية نفسها التي عرضناها وبرهنا عليها غير مرة.

* * *

اما تلك الخطّة ، ان كان هناك من خطة في الفتوحات الاسلامية ، فلا تظهر في مجالس شورى الخلفاء الّا عدة سنين بعد وفاة محمد. واما فتح سورية فقد بدأ وتتابع واتّسع عن غير توقع من الفاتحين ، بل نكاد نقول عن غير قصدٍ منهم . فلم يفيقوا من نشوتهم الّا وهم اصحاب البلاد التي شاوَروا اولّا ان يغزوها فينهبوها . ثم يعودون الى مقرّهم دون ان يفكروا بالاقامة فيها

(١ Henri de Bornier, *Mahomet*. Acte III, sc. 5

(٢ Snoucke Hurgronje, *L'Islam et le problème des races*. [Revue du monde musulman. vol. 50, 1922, p. 1-27]

وبسط سلطتهم عليها. ولا يعني هذا أنهم لم يهتمّوا بالأمر ، ولم يستفيدوا من استيلائهم على سورية ...

هذا ولا شكّ ان التاريخ العربي التقليدي ابعد من ان يقبل هذه النظرية ، وابعد من ان يُقرّ بوجوب هذا التحفظ في احكامه المتداولة. فهو يتبسّط في الكلام على مجلس حرب ترأسه ابو بكر في المدينة فبحث في وجوب اقرار خطّة للفتوحات وتوزيع مهامّ تنفيذ هذه الخطّة ، الى غير ذلك من الاساطير التي يظهر فسادها لمن تعمّق في درس مقدّمات فتح الشام ، فظهر له مرجّحاً ان البدو المكتسحين ساروا الى مناطق سورية وفلسطين دون ان يستشيروا الخليفة الاول . وهو برهان جديد على ان محمّدًا لم يفكّر قطّ بوضع خطّة لهذا الأمر ، ولم يترك لخلفائه اقل وصية في الموضوع.

يُخطئ اكثر مؤلفينا في شرح هذا الحادث التاريخي اولًا لأنهم يأخذون دون تمحيص بروايات مشكوك فيها ، وثانياً وخصوصاً لأنهم لا ينتبهون الانتباه الكافي لدرس نفسيّة العرب . فالعربي الحقيقي ، اي البدوي ، صاحب المضرب ورفيق الجمل ، ابعد الناس عقلية واستعدادًا عن المكتسح الفاتح . قال اسطرابون ان البدو من « اضعف المقاتلة ولكنهم من امهر التجّار.»

ثم ان درس الحياة الجاهلية يدلّنا على ان البدو لم يعرفوا من الحرب الّا مظهرها القديم ، اي الغزو بما يجرّه من سلب ونهب وهرب وقد تقدّم لنا الكلام[1] على صفة تلك النزوات البدوية التي تبعد البعد كلّه عمّا نعرفه الحروب والمعارك من مظاهر وشروط . فالغزوة غارة شعواء مضطربة ، تثير كثيرًا من الضجة ومن الغبار ، ومن دخان البارود ايضاً في العصور المتأخرة . ولكنها قلّما تسيل الدماء . بل ان من شروطها ان يتوصل الغازون الى سلب ما يريدون دون ان يقتلوا احدًا . فيسوقون القطعان ولا غاية لهم الّا الهرب قبل ان يلحق بهم اصحاب المال. يقومون في ذلك بكل ما أوتوه من اساليب الاحتيال والمفاجأة والبيات ورعب العدوّ ، ليس غير . اما اذا تجاوزت تلك

---

١) راجع مقالنا السابق في « نفسية البدو قبل الاسلام » المشرق (٣٠[١٩٣٢]١٠١)

الحركات الى اهراق الدماء. فلا يكون ذلك عن قصد او تعمّد ، بل عن صدفة يأسف لها الغزاة انفسهم ، اذ يكونون قد اجابوا بوادر الغضب والحدّة فخرجوا موقّتاً عن عادتهم المعروفة متحوّلين من نهبة محتالين الى محاربين حقيقيين. هذا ما يقوم به العرب من الغزوات. واننا نتأكد ذلك اذا انتبهنا لما كان يوصي به محمد نفسه رجاله ، قبل سيرهم الى المواقع، وهو لا يكاد يختلف في شيء عما اوصى به ايضاً قبيل وفاته . وملخصه : « سيروا بكل تحفظ حتى لا تثيروا الشبهات . اختبئوا في النهار ، وتقدموا في الليل ، وبيّتوا العدوّ عند السحر . تقدموا بالغزوة ثم ارجعوا بالسرعة ذاتها. »

هذا ولا عجب ان تكون سورية اثارت مطامع اهل الحجاز « بلد الجدب والفقر والضيق »[1]، فاتجهوا اليها بابصارهم الطامحة ، ورغبوا في خيراتها التي تنقلهم الى الرخاء ، فضلاً عن سدّ الجوع وتسهيل المعيشة. كيف لا ، وهي كما يسميها اهتهم ، بلاد « الخمر والخمير ، والامر والتأمير ، والديباج والحرير. »[2] بل هي خير البلاد في نظرهم كما يُستنتج من حديث قديم يرفعه بعضهم الى محمد نفسه فيقول: « قُسم الخير عشرة اعشار: فجعل تسعة اعشار في الشام ، وعشر في سائر الارض. وقسم الشرّ عشرة اعشار : فجعل عشر بالشام وتسعة اعشار في سائر الارض. »[3]

وعلى هذا المنوال كانت معيشة سلفاء البدو منذ القديم . فان الاخبار المدوّنة في التوراة وما اليها من اسفار العهد القديم تدلّنا على ان العمالقة والمديَنيين كانوا يتهافتون على سهول فلسطين المزروعة ، زمن الحصاد ، تهافت الجراد وعندما كان البدوي يفشل في الغزو ، كان يلوذ بالفرار مسرعاً الى صحرائه حيث لم يكن احد ليتمكن من اللحاق به . وهذا ما دفع كتبة اللاتين الى القول « ان بلاد العرب تعيش من النهب ». مما يدل على ان الغزوات كانت قد اصبحت حالة الشعب الطبيعية ومرفق المعيشة الاعتيادي . حتى ان

١) الاغاني ١٤ : ١٥٦

٢) الاغاني ١٩ : ٩٥

٣) ياقوت ٣ : ٢٤٠

حاتم طيّ ، اكمل مثال للجود والكرم عند الجاهليين ، كان ، اذا تكاثر عليه الاضياف وعجز عن قراهم ، صرفهم الى « ما بعد الغزوة المقبلة .»

هكذا كانت حالة العرب عندما اتى الاسلام فاعلن ان جميع المؤمنين اخوان مجتهداً في اقرار السلام بين القبائل المختلفة . فكان من نتيجة ذلك ان الغزوات ، وان لم تنتفِ تماماً ، اصبحت اضيق نطاقاً من ذي قبل ، واقلّ من ان تقوم بحاجات العرب الذين كانوا قد تعوّدوها طريقةً سهلة لكسب المعاش . فكان محمد بنسخه الغزو بين المؤمنين ، واقراره السلام الاسلامي في انحاء الجزيرة ، حمل البدو ، من غير ان يقصد ، على الطموح الى ما جاورهم من البلاد آملين بان يغزوها يوماً ما وينهبوا منها ما كان يحرّم عليهم نهبه في بلاد المؤمنين .

وبهذا المعنى وحده يمكن القول ان محمّداً اعدّ العرب لفتح الشام.

* * *

وقد جرّب بعض المستشرقين ان يشرحوا الفتوحات العربية على غير ما قدّمنا، فلجأوا الى فكرة الشعبية وعقلية العنصر ، وزعموا ان بدو الحجاز أتوا سورية كي يحرّروا قسماً من وطنهم كان يئنّ « تحت نير الاجنبي » (دي غويه) . ولا يخفى ما في هذا الشرح من الخطأ والوهم ، لاننا ننسب به مجاناً الى بدو الجاهلية نظريّات عصرنا المترعزعة في العناصر البشرية ومعلوماتنا المضطربة عن عقليات الشعوب وقومياتها ، ولم يكن اذ ذاك شيء من ذلك . فان مدلولات الوطن والشعب والقومية وما اليها من المجرّدات لم تكن لتفقهها عقلية الاسماعيليين المادّية ، ولم يكن ليهتمّ بها اولئك البدو ، وهم اقرب الامم الى العمليّات ، واعلقهم بالفرديّة . هذا ما جرّ الى الخطأ المستشرق دي غويه (de Gœje) الذي كان لغوياً اقدر منه مؤرّخاً . يتضح ذلك لمن يقابل بين رسالته « في فتح سورية » ومنشورات كايتاني (Caetani)

وفي هذا الموضوع ، كما في غيره مما يتعلّق بالعرب والاسلام ، علينا ، قبل كل شيء ، ان نفتح القرآن فنطلع على ما كان يراه عرب الربع الاول من القرن السابع في ما خصّ فكرة « العنصر » او « الشعب » .

يؤكد القرآن وحدة النوع البشري، ولا تأثير عنده ، في الموضوع، لحادثة برج بابل. فهو ، وان ذكر «اختلاف الالسنة والالوان» فانما يذكره «آية» اي اعجوبة من اعاجيب الله الذي يحب التنوّع في الوحدة. فيقول: « ومن آياته خلقُ السموات والارض واختلافُ السنتكم والوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » (٣٠: ٢١) ثم هناك نصّ آخر يوفق بين تلك الوحدة الاصلية الاساسية وهذا التنوّع العرضي ، فيقول : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. ان اكرمكم عند الله اتقاكم. ان الله عليم خبير» (٤٩: ١٣).

ولم تكن هذه العقيدة القرآنية لتحول ، بعد اتساع الفتوحات ، دون ظهور روح عربية مسيطرة بنت سياستها على عكس ما جاء في هذه الآيات. فاخرجت العقلية البدوية من جمودها وانفرادها القديم ودفعت بها الى قومية عربية لم تكن لتعرفها زمن الجاهلية. فكانت هذه القومية نتيجة اتساع الفتوحات وتسلّط العرب لا سبباً للفتح كما يزعم بعض المؤلفين. وكان من تأثير هذه القومية المتطرّفة ان اثارت احتجاجات الشعوبيين، وهم متنوّرو المسلمين من غير العرب، فقاموا يجاهدون ويطالبون مدة طويلة حتى حصلوا على المساواة بينهم وبين الجهّال من البدو. فكان من نتائج تلك القومية العربية العمياء ان جعلت ، حتى بين المسلمين انفسهم ، اقليةً سياسية تطالب بحقوقها الى جانب الاقليات الدينية كالمسيحيين واليهود وغيرهم.

ولنسأل الآن كيف كان يعتبر عرب الحجاز وما اليه من الجزيرة اهل سورية ، رعايا الامبراطورية الشرقية ؟

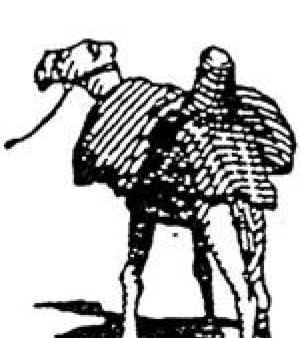
كانوا يعتبرونهم « روماً » اي بيزنطيين ، لا عرباً كما يريد بعض المتأخرين ان يجعلهم. من الحقّ ان عدداً من القبائل العربية الاصل كانت قد نزلت ، قبل قرون عديدة ، في البوادي المقفرة المتتابعة بين الفرات ووادي العاصي المتصل بمنخفض الاردن. فكانت تتكلم لغة مزيجة من السريانية والعربية عليها مسحة الارامية ، حتى عصر الفتح ، فاطلعت على عربية قريش ، وهي لغة القرآن ، واخذت باستعمالها. ولهذا لم ينبغ احد ، قبل الاسلام ، من شعراء هذه القبائل السورية العربية الأصل. ولكن من الحقّ

أيضاً ان بدو الحجاز لم يهتموا في عصر من العصور ، بل لم يظهر انهم شعروا بما كان من القرابة بينهم وبين تلك القبائل التي كانوا يخلطون بينها وبين غيرها من سكان سورية ، فيسمونهم جميعاً « اهل الشام ».

واذا انتقلنا الآن الى عرب سورية فتساءلنا كيف كانوا بدورهم يعتبرون بدو الحجاز ، فنرى انهم كانوا يترفعون كل الترفع على سكان جزيرة العرب، ويبذلون جهدهم في ان يبعدوا عن بلادهم السورية « قمل الحجاز » ، و « حرشة الضباب وأكلة اليرابيع » كما كانوا يدعونهم تهكماً واحتقاراً . ولم يكن عرب سورية اذ ذاك بارغب من عربها اليوم في ان يروا اهل الحجاز يتدخلون في شؤون بلادهم . فكانوا يقومون بما طلبته اليهم الادارة البيزنطية من حفظ الحدود السورية ، والسهر على الامن في البادية ، ومراقبة مرور القوافل والقبائل البدوية .

* * *

هذا بالاجمال موقف سورية من بدو الحجاز، وموقف هؤلاء من سورية عند الفتح الاسلامي . والخلاصة ان العرب جاؤوا ، في النصف الاول من القرن السابع ، فغزوا سورية لأن البيزنطيين اهملوا حراسة حدودها . وانهم ظلّوا مقيمين فيها لأن البيزنطيين لم يقووا بعد ذاك على طردهم منها . على هذه الطريقة، ولهذا السبب افتتح العرب سورية . اما ما يُقال في ذلك غير ما تقدم فهو إمّا نظرية متطرّفة لا تستند الى برهان او بلاغة خطابية جوفاء .



صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني

الياس بطرس الحويك

١٨٤٢-١٩٣١

بقلم الخوري منصور عوّاد عوّاد

٢

الاسقف

ان المدة الطويلة التي قضاهـا الحويك في المقر البطريركي ، سواء أكان كاهناً او مطراناً ، اكسبته بشؤون الطائفة المارونية الداخلية والخارجية وحاجاتها وما يستلزم لبنان في اموره السياسية والادارية والاقتصادية خبرة عزّ نظيرها عند سواه . فما ازف الوقت المناسب ، ودقّت ساعة العناية ، وازدادت الثقة به بالاسقفية التي ارتقى اليها ، حتى شرع يحقق افكاره الاصلاحية دون دويّ ولا طنين بل بهدوء ورباطة جأش كعادته .

عرف باختباره الطويل ان كثيراً من الفتيات اللبنانية لا يزلن محرومات من التهذيب الضروري الذي يرفع مستواهنّ الى المقام اللائق بهنّ والواجب لهنّ ، وعرف ان اساس التربية العائلية هو المرأة ، فاذا كانت هذه مهذبة امكنها ان تهذب الناشئة اللبنانية ولاسيا المارونية تهذيباً ضرورياً للدنيا وللآخرة . ورأى ان من انفع الوسائل لذلك انشاء جمعية من الراهبات الوطنيات ، لا المحصّنات او المحبوسات المنقطعات عن العالم الى الحياة النسكية في صوامعهنّ كما كان المألوف في الطائفة والشرق حتى ذلك العهد ، بل بجمعية من الراهبات اللواتي يختصصن لخدمة الفتاة في العالم بحياة تجمع بين الكمال الروحي في التأمل والصلاة ، والحيـاة الروحية قيد النذور والقوانين الرهبانية ، وبين الكمال العملي بخدمـة القريب وتعليم

الفتاة وترويضها في امور الدين والآداب ، وبالمعيشة في وسط العالم مع الترفع بالروح وبطريقة الحياة عن كل ما هو عالمي.

وتقرّر لديه ان الشعب الماروني لا يترقى ولا يبقى الدين الكاثوليكي تراث الجدود الثمين بل الاثمن راسخاً فيه رسوخ جباله الا بتهذيب اكليروسه التهذيب العالي الكامل ، وما ذلك الا لان الكهنة هم قادة الشعب ورعاته . فاذا كان القائد قديراً مدرّباً عالماً واذا كان الراعي جديراً برعاية الناس لاسيما النفوس ، استطاع ان يقود رعيته الى المراعي الخصيبة فينيرها بعلومه ويرشدها بسديد آرائه ويشبع قلوبها بفضائله ويستميلها بمثله الصالح الى الفضيلة والى الله.

وادرك ان الطائفة المارونية منذ أُقفلت مدرستها في رومية في مستهل القرن التاسع عشر ، بحلول جنود نابوليون الاول فيها اثناء احتلاله للمملكة الرومانية البابوية ، خسرت قوة عظيمة لان طلبة تلك المدرسة هم من الذين رفعوا المستوى اللبناني واخصّمنه الماروني الى رقيه ومجده الحقيقيين وجعلوا من الطائفة المارونية في الشرق حديقة غنّاء زاهرة بالعلوم. ففكر في ضرورة ارجاع تلك المدرسة القديمة الى الوجود.

ولهذا ما ان انتدبه الخالد الذكر سلفه البطريرك يوحنا الحاج ليذهب الى رومية في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠ لتأدية فروض الطاعة والخضوع بالنيابة عنه لقداسة امام الاحبار البابا لاوون الثالث عشر ، ولطلب درع الرئاسة وبراءة التثبيت عملاً بما ترسمه الواجبات الكنسية التقليدية،حتى كاشفه بافكاره، ففوّض اليه ان يسعى لتحقيق تلك الافكار السامية وخاصة فكرة تجديد المدرسة المارونية ، التي كان قد سعى قبله وراء تحقيقها بطاركة الطائفة وبعض احبارها فا توفقوا ، ثم قلده السلطة اللازمة لتلك المساعي الخطيرة.

فما ان اتم مهمته في رومية وبعث بالدرع والبراءة الى السيد البطريرك حتى تخلف في عاصمة الكثلكة وشمّر عن ساعد الجدّ في سبيل احياء المدرسة المارونية القديمة الشهيرة وبعثها من لحدها . فتوفّق جد التوفق باكتساب عطف قداسة البابا ومساعدته وتزوّد باجازة منه ومن مجمع انتشار الايمان المقدس بل بتوصيات تدلّ على مبلغ ثقة السدة الرسولية به ثم توجه الى فرنسة بلاد الاحسان،

وقبلة الموارنة في كل عصر وخاصة منذ عهد الملك القديس لويس التاسع ، فزار الشعب والرؤساء والحكومة. فاعجب كرادلة فرنسة واساقفتها بتجرده وسعة نظره ، واحبه شعبها لدعته وفضائله ، وقدّره رجال الحكومة قدره لصدقه وصراحته وسعة اختباره وصدق نظرياته السياسية والادارية . فاقنع الحكومة بوجوب التعويض على الموارنة عما أُنزل بمدرستهم الرومانية القديمة من الخراب بسبب احتلال الجيوش الافرنسية عند ما احتلوا رومية في مطلع القرن ، وخاطب الشعب والاساقفة واطلعهم على حاجة الموارنة الى مدرسة عالية تهذّب اكليروسه في عاصمة الكثلكة وكان يجول من رعية الى اخرى ، ومن ابرشية الى ابرشية ، يلازمه في اسفاره الخوري بولس بصبوص ويرافقه شاهداً على عزة نفسه وتجرده واتعابه الشاقة ، يمدّ يده الى جمع التبرعات قائلاً للشعب الافرنسي : إن الشعب الذي يرسل بنيه الى جميع اقطار المسكونة لتهذيب العالم ورده الى الدين الكاثوليكي لا نخجل ان نمدّ اليه يدنا ليجود علينا بماله احياء لمدارسنا ومشاريعنا التهذيبية. لانه شعب متعود البذل في سبيل الكنيسة والله والعلم ، ونحن لنا دالة خاصة على فرنسة حيث ان الشرق يلقب الشعب الماروني بفرنسة الشرق وما ذلك الا لارتباطنا برابطة حسب قديم لا تنفصم مع هذا الشعب النبيل.

فلبته الحكومة الافرنسية باريحية اذ عيّنت للطائفة المارونية ثمانية كراسٍ مجانية لثمانية اكليريكيين في مدرسة سان سولبيس الطائرة الشهرة في باريس ، ومعبداً في قصر ليكسمبورغ ليقيم فيه الموارنة نزلاء باريس واجباتهم الدينية. ولباه الشعب باكثر اريحية وسخاء فجمع مبلغاً لا يُستهان به لتجديد مدرسة رومية. وكان يبعث بالتبرعات الى مجمع انتشار الايمان او الى قداسة البابا رأساً حرصاً على حسن سمعته لئلا يُقال او يُظن انه يجمع لنفسه او لينتفع بشكل من الاشكال. وهذا كان من الامور التي زادت اعجاب البابا به ، ومجمع انتشار الايمان واساقفة فرنسة وكرادلتها تقديراً له وغيرة على اسعافه. وكان للاوون الثالث عشر نظر خاص عليه ، وارتبط بصداقة متينة مع كردينال روان وكردينال باريس وسواهما من الرجال العظام. وما ان رأى الحبر الاعظم البابا لاوون ذلك

التجرد والاخلاص والمقدرة حتى امدّه بمساعدة فعّالة غير مكتفٍ بالاعجاب والتقدير. وبادرت الطائفة المارونية كلها برؤسائها ورهبانياتها وشعبها وامدته بمبلغ غير قليل من المال يوازي نصف ما جمعه في الغرب لتجديد المدرسة المارونية، فتوفق الى احياء المدرسة وايجاد الايراد اللازم لمعاش نحو خمسة وعشرين تلميذاً فيها يتعلمون مجاناً على نفقتها. وتمّ له ذلك ببراءة بابوية مؤرخة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٩١، بُعثت بها المدرسة القديمة من لحدها بجميع حقوقها وامتيازاتها وامتيازات طلابها.

وفي الوقت ذاته سعى السعي الجدي لانشاء جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات وتوفق. وله في هذا المسعى الاخير الكثير الخطورة تقارير عديدة ومباحثات مع رؤساء مجمع انتشار الايمان ومع البطريرك الاورشليمي وقتئذٍ على اللاتين، ومع سواهم من كبار الدين ليس هنا مجال ايرادها، بل يكفي الالماح اليها.

وفي تلك الاثناء اسند اليه البطريرك يوحنا الحاج مهامّ عديدة خطيرة الشأن فقام بها خير قيام: منها ما كان تجاه الحبر الاعظم، ومنها ما كان تجاه الحكومات الزمنية كرئاسة الجمهورية الافرنسية وامبراطور النمسة فرنسوا جوزف وسلطان بني عثمان في الاستانة، وقد فاز من هذا في مدة اقامته في الاستانة بمساعدة مالية ذات شأن لمدرسة رومية، وحظي من ولي عهد النمسة بقصره في مدينة تيڤولي ليكون مصيفاً لتلامذة المدرسة، وقد بقي كذلك الى امدٍ غير بعيد منا. وحضر من قبل الطائفة المارونية مجمع البطاركة الشرقيين في رومية، والمجمع القرباني الاول في القدس. وكان حيث نزل وأنّى وجد يغتنم الفرصة للاهتمام بشؤون طائفته وبلاده سواء كان من الوجهة الدينية او الاجتماعية والسياسية او الاقتصادية باقواله وتقاريره وافعاله بكل تجرد واخلاص وجرأة ووضوح وخبرة عملية عزّ نظيرها. فانفتح بتلك المهام امامه أفق جديد متسع وعرف اكبر اكابر العالم، ولاسيما من لهم علاقة مع الطائفة والبلاد فازدادت معارفه وعظمت منزلته وعرفه الذين لهم كل التأثير في ادارة دفة الكنيسة او دفة السياسة العالمية، وصاروا يعطفون عليه ويميلون اليه ويقدرونه قدره. ولاجل

هذيا كان يتوفق في مهامه بسرعة غريبة ما كان يحلم بها من عالجوا تلك الشؤون عينها قبله . ومن الامور التي توفق فيها اثناء عودته من رومية ومصر في مروره على القدس سنة ١٨٩٥ انه اشترى دارًا فسيحة لنزول الزوّار الموارنة فيها صارت مركزًا لوكيل بطريركي في القدس الى يومنا هذا ، لانه انف ان تبقى الطائفة المارونية في فلسطين محرومة من مركز يؤمّه الزوار من ابناء الطائفة وان يكون الموارنة اجانب اغراباً في القدس وهم اقرب الناس جوارًا الى المدينة المقدسة ، وكان لهم فيها مزارات في كنيسة القيامة وسواها من اقدس المزارات فضلًا عن الرعية الكبيرة والعقارات الواسعة .

وبأمر البطريرك يوحنا الحاج زار ابناء الطائفة المارونية المنبثين في جميع انحاء القطر المصري وذلك اثناء عودته من اوربة . فلبث بينهم يتفقد شؤونهم ويعنى بامورهم الروحية افضل عناية فاحبوه كثيرًا وعرف ما يحتاجون اليه فثبت له انه لا بدّ من انشاء نيابة بطريركية في مصر تُعنى بامورهم عن قرب وبصورة دائمة .

ان ذلك الفوز السريع في مشاريع الاسقف الغيور الناهض وتلك المساعي المختلفة المشكورة والتقارير المسهبة المشربة بروح المحبة للشعب اللبناني والعطف عليه ، المسبوكة بقالب الحكمة والسداد والاخلاص والتجرد التام . وذلك التعرُّف الى كبار الدين والدنيا قد وجّه اليه انظار قداسة البابا لاون الثالث عشر العظيم ، فاستدعاه شخصياً سنة١٨٩٧ الى رومية وعهد اليه بادارة المدرسة المارونية التي احياها بجده ونشاطه وغيرته ، اذ تحقق لقداسته ان ما من احد يستطيع ان يتعهد ذلك المعهد في اول نشأته بالغيرة والحب والعناية كالمطران الياس الحويك الذي عرف ان يجدده بمساعيه المشكورة ومتاعبه الممدوحة وسهره الدائم . فكان في تلك المدرسة اباً ومرشدًا ومديرًا ومدبرًا عائشاً بين التلاميذ كأنه تلميذ . ومما يروى عنه فيما انه كان اذا اهدى اليه احدهم تفاحة او طيرًا او قطعة حلوى لا يرضى ان يأكلها وحده بل يقسمها مع تلاميذ المدرسة اثناء الطعام على المائدة فكان معهم كاصغرهم سنًا لا يشعر احد بوطأة رئاسته . فاصطلح جميع ما كان مختلًا في المدرسة قبل استلامه اياها وبشرت بمستقبل

باهر، واتضح ان الحويك اينما حلّ يكون سيد المقام بعلمه وفضيلته وحكمته وحنكته وطول اناته.

ان المطران الياس الحويك قد ترك آثارًا كتابية في تقاريره الدينية الى المراجع الكنسية العالية والمراكز الدينية السامية لا تزال محفوظة تدلّ جميعها على خصب حياته الاسقفية بجلائل الاعمال العائدة بالخير الحقيقي والروحي والزمني على الطائفة والبلاد. ولو كنت اؤرّخ الوقائع والحوادث اليومية من حياة البطريرك الحويك العظيم لما كفاني مجلد ضخم لسرد ذلك، وانما انا اشير بهذه اللمحة اشارةً الى مآتي ذلك السيد السامي، ناظرًا الى الاحداث التاريخية في حياته نظرة اجمالية، آخذًا منها ما يؤيد الفكرة العمومية المقصودة من هذه العجالة وهي تخليد كلمة في حقيقة عظمة البطريرك الحويك وفي سر تلك العظمة.

قال بعضهم يوم ارتقى الى السدة البطريركية المغبوط الذكر البطريرك يوحنا الحاج، وبعث بالمطران الياس الحويك الى رومية لتقديم الطاعة للحبر الاعظم واستجلاب درع الرئاسة وبراءة التثبيت، وللسعي في سبيل تلك المهامّ التي اشرت اليها، ان البطريرك يريد ان يبعد الحويك عن بكركي ليغيّر سياسة البطريركية التي كان يديرها الحويك باسم البطريرك مسعد، واعتقد الكثيرون ان البطريرك باعتماده على تلك الخطة تنير على الحويك او انه غير راض عنه. بيد ان الحقيقة هي غير ما يتوهم الناس وفي سوى ما يبنونه على الظواهر ويعلقونه على الاقاويل. ان البطريرك يوحنا الحاج الثاقب النظر البعيد الهمة العميق الغور، كان اعرف الناس بشهرة الحويك فرأى ان سفره الى رومية يكون خير الطائفة والبلاد ولازدياد معارفه الشخصية واختباراته، فكان آلة في يد العناية الالهية التي ارادت ان تكمّل الحويك وتجعله صالحًا للبطريركية المارونية ليخلف البطريرك يوحنا الحاج ويكون صلة بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وتتحقق بواسطته جلائل الامور. فالخبرة التي اكتسبها في لبنان طيلة اقامته في البطريركية لم تكن كافية في الشؤون الخارجية الواجبة للمعاطاة مع اساطين السياسة في فرنسة والاستانة، وكبار رجال الدين في رومية وغيرها ولاسيما مع امام الاحبار.

ومن اسباب فشل بعض الرؤساء في الادارة الكنسية او المدنية ، وخاصة في شرقنا ، الطفرة في تقلد الوظائف دون المرور في جميع ادوار السلك الاداري للتمرن والتعرف على الناس.

ان الطفرة قد تجوز احياناً مع النوابغ ، ولكنها غير محمودة حتى في هذه الاحوال ، لان النابغة يكون نابغة في فنّ او في امر واحد اما سياسة الناس ان في الدين وان في الدنيا فلا بد لها من نبوغ في جميع الشؤون . وما ذلك الا لان الرئيس يكون مرجعاً لطبقات من الشعب مختلفة العقول والتهذيب والمقدرة والرقي والحاجات فيلزم لاداراتها منْ يكون قد تقلب في مناصب عديدة وتمرن على جميع الشؤون الاجتماعية،ليستطيع ان يفهم حاجات المرؤوسين وعاداتهم واخلاقهم وميولهم ، شأنه في ذلك شأن ربان السفينة الذي لا يُقلد وظيفة الربان منفرداً الا بعد ان يكون تمرن تحت يد ربان ماهر سنوات واجتاز البحار مراراً في هدوئها وفي هيجانها وعواصفها ليصير خبيراً بطرقها مستحقاً ان يؤتمن على ارواح الناس وعلى اموالهم !

كان الحويك يشعر بالمقاومات والمضادات في الاقوال والافعال منذ كان كاهناً الى ان صار اسقفاً . غير انه ما كان يظهر غضباً ولا يُبطن حقداً ، بل كان يتجاوز عن هفوات الناس ويستفيد منها ويرى بها اصبع العناية الالهية ويتوقع من ورائها نتيجة لا ينتظرها البشر ولا يحسبون لها حساباً . ولهذا ما رأيناه في حياته مشتغلاً بالانتقام من احد ولا بالدفاع ضد احد من مناوئيه، بل كان دائماً متبسماً يقول : « الله يدبر . دعوا العناية الالهية تشتغل وحدها فهي التي دبرت ما جرى لخير ما كنا نعرفه ولكن سنلمسه بايدينا غداً . » وهكذا كانت تحقق العناية الصمدانية آماله وايمانه بها .

فما اجمل طرق العناية الالهية انها كلها حكمة وسلام . فهي تستخدم في اكثر الاحيان ضغائن الناس وقصر نظرهم لتوصل الى غاياتها وتعد رجالها في السكينة ليوم العاصفة ، وفي العاصفة ليوم الطمأنينة ! « فتحصد من حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر ! »(١) (لها بقية)

(١) متى ٢٥ : ٢٤

الذهب في مناجمه وخاصة في سورية

بقلم مرتن جير

السيد مرتن جير مهندس اختصاصي بالتعدين، زار عدة مناجم ذهبية في اوربة واميركة، واشتغل في بعضها، فجمع الى درس عميق خبرة طويلة. وقد قدم مؤخراً فدرس مناجم الذهب السورية في ناحية انطاكية. والقى المحاضرة التالية في نادي الشبيبة الكاثوليكية، فرأينا ان نأخذ منها ما يكون تبصرة وتفكهة للقراء الكرام.

١

تختلف الامم في تسمية الذهب وتلقيبه وطرق تكريمه، ولكنها تتفق جميعاً على جعله قبلة المساعي الاقتصادية، وملك المعادن كلها.

والذهب معدن شديد اللمعان، قويّ متين، اكثر المعادن مرونة حتى انه يُتوصل بتطريقه الى ان تُجعل منه عشرة آلاف رقاقة احداها فوق الاخرى فلا تتجاوز المليمتر الواحد سماكةً. يبلغ ثقله النوعي ١٩,٣ . وتصهره الحرارة، اذا بلغت ١٠٣٥ درجة. اما اذا زادت الى نحو ٢٥٠٠ درجة، فيبدأ الذهب المصهور بالتصعُّد على شكل بخار اخضر جميل. ويرى العلماء ان في الشمس كميات وافرة من الذهب على تلك الحالة.

ولكن اين نجد الذهب على الارض، وما هو اصله، وكيف يُستخرج؟ هذا ما سنتكلم عليه قاسمين بحثنا الى قسمين: نصف في الاول حالة الذهب في مناجمه. ونبحث في الثاني عن امكان وجود المناجم في سورية، وعن مركز الذهب في الصناعة وما اليها.

الذهب في مناجمه

الذهب في العصور القديمة

اقدم ما وصل الينا من اخبار الذهب واجدرها بالثقة هو، دون شك، ما نراه في عاديات المصريين فان الفراعنة القدماء يتكلمون عنه في آثارهم،

فيذكرون البعثات التي كانوا يرسلونها الى ما وراء شلالات النيل ، الى داخل بلاد السودان ، لتستجلب لهم الذهب ، والعاج ، والاخشاب النادرة الثمينة ، والعبيد . ولم يكن الذهب ، في ذاك العهد ، من النقد ، بل كان معدناً شريفاً مقدساً تؤخذ منه حلي الملك وكبار رجال الحاشية . وبعد ذلك اخذت مصر باستيراد الذهب من مناجم الجبل القائم بين البحر والنيل الذي يمتد الى ابعد من بلاد السودان ، الى اراضي الحبشة الغنيّة بالمعادن الذهبية وخصوصاً ما كان منها حول بحيرة رودولف.

ولم تخص الطبيعة تلك البلاد وحدها بالذهب ، بل اننا نرى مناجمه منتشرة في العالم القديم ، في بلاد العرب ، وآسية الصغرى ، وبعض انحاء اوربة . اما في مصر فقد قامت مصلحة الآثار الجيولوجية بالتفتيش عن مناجم الذهب القديمة، فاكتشفت نحو العشرين منها ترقى الى العهد الفرعوني . واكثرها متروك بسبب سوء المناخ وقلة الماء . وقد كانت كلها مفتوحة للاستثمار يشتغل فيها اسرى الحروب ، والعبيد ، والمجرمون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وكانت الحكومة في ذاك العهد تفرض على كل عامل ان يستخرج ملء قفة من ذاك التراب الذهبي، فينال قطعة من الخبز الجاف وبصلة وقدح ماء .وان لم يستخرج المطلوب لم ينل المرغوب . فكان الجوع والسوط من افضل وسائل استثمار المعادن في ذاك العصر ... وقد تحققت ذلك بنفسي ، اثناء تفقدي منجم الزمرد القديم في ساقط الذي ظلّ عرضة للاستثمار حتى عهد البطالسة ، فرأيت في زاوية احد الانفاق ، السلاسل التي كانت تربط العبيد والعملة المشتغلين باستغلال المعدن في تلك العصور المظلمة .

واذا ذكرنا التفتيش عن المعادن الثمينة ، يجب ان نفرد ذكراً خاصاً للفينيقيين، وهم اشهر من سار وراء الذهب ، والأنك ، والعنبر وما الى ذلك . فاتقنوا استخراج الفلزات ، وطرق استغلالها ، وتحويلها الصناعي ، والمتاجرة بها . وكانوا يسيرون في مراكبهم فيجوبون البحار ، ويطوفون البلاد حتى ما وراء اعمدة هرقول ، فينزلون في شواطئ اسبانية في بسكاي ، وريو تنتو ، وهويلفا ، فيعملون هناك . كانوا يجمعونه من الرواسب الذهبية في تلك

المناطق ، ويستخرجون ايضاً الذهب العرقي وفلزات النحاس . وكانوا يغسلون معادن الأنك على شواطئ بريطانية من فرنسة ، وفي الكورنوايل من بلاد الانكليز . اما العنبر فكانوا يطلبونه من بلاد البلطيك فيشترونه من سكان الشواطئ حول كونيغسبرغ . ثم يعودون الى بلادهم فيعرضون محصولاتهم في اسواق مدنيات آسية الراقية.

وكانوا ، لكثرة اسفارهم واتساع رحلاتهم ، قد توصلوا الى معرفة صفات الشواطئ وميزات الاقاليم في العالم القديم . فلم يكونوا يجهلون جزيرة من الارخبيل ، ولا مرفقاً من مرافق التجارة ما وراء الهلسبنطس . بل كانوا كثيراً ما يصلون الى بلاد كولخيدة ، في آسية الصغرى ، فيشترون الذهب الذي كان سكانها يستخرجونه بواسطة جلود الغنم. وذلك بان يغسلوا على هذه الجلود الرمل الذهبي الكثير في انهر تلك البلاد فينحدر الرمل مع الماء ، وتعلق ذرات الذهب بقطع الصوف . ومن هنا نشأت اسطورة الصوف الذهبي الشهيرة (*La Toison d'or*). ولا يأخذنا العجب من تلك الطريقة في استخراج الذهب ، فاننا لا نزال نستعملها حتى في عصرنا ، اذا توافرت لدينا ذرات الذهب المختلطة بالرمال، فلا نرى واسطة الّا غسل تلك الرمال على جلود الغنم حتى تعلق الذرات بصوفها . ثم نحرق الصوف ونستخرج الذهب من رماده . واذاً فليس من جديد تحت الشمس.

وان من يتفقد المناجم القديمة يرى ان سلفاءنا لم يغفلوا طريقةً كانت ممكنةً في عصرهم الّا استخدموها . فهناك الانفاق الكثيرة ، واللوحات الصخرية ، والآبار العميقة المستطيلة، وما الى ذلك من الاشغال الدالّة على اتساع المعلومات بشأن استغلال المناجم ، وتطبيقها تطبيقاً عملياً يشهد بتقدم المصريين ، والفنيقيين ، واليونان ، والرومان ، والغاليين . ولا سيما اذا انتبهنا لقلة الوسائط الفعّالة اذ ذاك ، وضعف الادوات وصغر الآلات وعدم وجود موادّ الانفجار المستخدمة في عصرنا.

وقد وقفت بنفسي على كثير من هذه المناجم تحققت فيها دقّة الاقدمين وخبرة متولّي استغلالها في عهدهم . واني لا ازال اذكر مناجم الرصاص الفضي

في لوريوم التي كانت تستغلها مدينة أثينة، فتستخرج منها الفضة اللازمة لمسكوكاتها. وكثيراً ما كان ارباب تلك المناجم يشترون العبد الغالي الجيد بالاستغلال بثمن فاحش لم يكن ليقلّ عن ثلاثمائة وزنة من الفضة ، فيولونه ادارة المنجم. ونحن اذا قدرنا مبلغ ذاك الثمن بعملتنا الحاضرة رأينـا ان الوزنة الفضية في اثينـة كانت تعادل نحو ١٤٠٠ ليرة لبنانية سورية، فيكون ثمن ذاك العبد ٤٢٠,٠٠٠ ليرة لبنانية سورية.

ولا ازال اذكر كذلك مناجم الذهب في تلسوس . وقد اشار اليهـا اسطرابون او هيرودوت في قوله : كان الفنيقيون يستخرجون الـذهب من مكان تجاه سوموطراس بين إينيرة وكينيرة . فسرت الى هناك ، ودرست تركيب طبقة الارض فرأيت فيها عروقاً من الكوارتز الذهبي . فاستخرجت امثلة منها وحلّلتها فاعطى الطنّ نحو ١٨ الى ٢٠ فرنكاً ذهبياً . وهو معدّل ظهر قليلاً اذ ذاك ، فتركنا المشروع لاسباب اقتصادية صناعية وسياسية ايضاً.

* * *

يعتقد الكثير من الناس ان المناجم في البلدان القديمة قـد نفدت ، وان ليس من ذهب صالح للاستخراج الّا في البـلاد البعيدة كمنـاطق اميركة ، والترانسفال ، واوسترالية ، وما اليها . وهو وهم كثير الانتشار كما سنبين.

ان يكن من الثابت ان استخراج الذهب من منجم ما يضعف هذا المنجم حتى ينفد ما فيه ، فليس ثابتاً كذلك ان ما استخرج من مناجم العالم القديم استنفد كل ما فيها . يتضح الامر اذا انتبهنا اولاً لكمية الذهب المستخرج حتى القرن الخامس عشر . فان ما كان منه موجوداً سنة ١٥٠٠ ، في العـالم القديم ، لا يمثل الّا جزءاً واحداً من اربعين ممـا هو عليه اليوم . فهـل من المعقول ان الشعوب القديمة ، كي تصل الى هذه النتيجة الضئيلة بالنسبة الى كمية الذهب الحالية ، قد استنفدت مناجم اوربة ونصف افريقيـة وآسية ؟ اني لا اعتقد ذلك . بل ارى انه لا يزال في بلادنا الاوربية ، وهنـا في سورية ، مناجم صالحة للاستغلال . اقول هذا عن تيقن واختبار . وسأتكلم عمّا نراه خاصة في سورية من مناجم ذهبية ؛ لا كما يتكلم احد الغواة عن غريبـة

معدنية ، او حدث جيولوجي ، او عن اكتشاف ، فكمه لا مستقبل له ولا اهمية في نظر ارباب الصناعة . ولكن سأتكلم عن ذلك كلامي عن حقيقة واقعية ومنجم صالح للاستغلال، يُشبه في تكوينه الجيولوجي كثيرًا من المناجم التي اشتغلنا فيها واستخرجنا منها عددًا كبيرًا من السبائك الصفراء البرّاقة ، فارسلناها الى المصارف لحساب شركائنا في ذاك الاستغلال.

هذا وان مناجم العالم القديم ، وان لم تبلغ مبلغ مناجم اوسترالية واميركة سعةً وغنىً ، فانها لا تزال تأتي مستغليها بفائدة لا يُستهان بها ، اذا ما قاموا باعمال منظّمة مرتّبة في ظلّ شريعة متساهلة ، مستندين الى الوسائط المالية والصناعية والفنية التي يستند اليها مستغلو المناجم الجديدة . وان تكن مناجمنا القديمة مهجورة ، فليس سبب ذلك فقرها الطبيعي او صعوبة استغلالها ، بل ما نشعر به من مجرىً غريب يدفع بابناء العصر الى المخاطرة والمجازفة في البلاد الجديدة ، التي قد يعودون منها ، بعد وقت قصير ، وقد وافقهم الحظّ فربحوا الثروات الطائلة . وهذا ما لا يتوفقون اليه في العالم القديم بفضل ما فيه من التنظيمات والترتيبات التي قد تضيّق بعض الاحيان على ارباب العمل مجال سعيهم ومجازفاتهم.

الذهب في المناجم البعيدة

ليس بالامكان ان اتكلم على جميع المناجم المنتشرة في العالم ، فان كلًّا منها يتطلّب درساً برأسه . ثم ليس من المعقول ان اعرفها جميعها . فقد زرت كثيراً منها ، ودرست بعضها . فامكنني ان احادثكم عما رأيته بنفسي ، واني لشاعر بان الانسان كلّما درس وتعمّق واختبر ادرك قلّة معلوماته وفقر معارفه بالنسبة الى حقيقة الامور.

نرى الذهب في الطبيعة على مظهرين اجماليين تُردّ اليهما جميع مظاهره الثروية :

الذهب الراسبي المتعلّق بالرواسب الرملية في الشواطئ خاصة ، او في الاماكن التي كانت شواطئ . والذهب العِرقي البارز في عروق الكوارتز مع

شيء من فلزات الحديد وغيرها من المعادن.

في ألاسكة ، وفي المناطق الشمالية الغربية من بلاد كندة ، وفي كولومبية البريطانية ، يرى المعدّن الواحاً عظيمة فسيحة من الرواسب الذهبية في الاودية وشواطئ الانهار وخصوصاً كولومبية ريفر ، وطومسون ، وفرازر وغيرها . ولا يرقى عمر هذه الرواسب الى ما وراء العصر الجليدي الأول ، بل ينتقل اكثرها بين هذا العصر والعصر الجليدي الثالث.

وعندما تظهر الطبقة الصخرية في مجرى النهر او الساقيـة ، او في قعر الوادي ، وعليها الخطوط الرملية ممزوجة بالدقائق الكوارتزية ، محتوية بعض اكاسيد الحديد ، او المغناطيس وما شاكل ، يسرع المعدّنون الى غسل تلك الرمال وتنقيتها فيستخرجون دقائق الذهب.

فاذا تمّ لهم ذلك وتحقّقوا ، على التقريب ، معدّل مستخرجات الطنّ من تلك الرواسب ، اسرعوا الى اول مركز رسمي لتسجيل استغلال المناجم . فبرهنوا عن صلاحية اكتشافهم ، واستحصلوا على الترخيص بمباشرة العمل ؛ وهو ما يعرف برخصة « *placer claim* » . ثم يفتشون بالتفتيش عن شركاء يساعدونهم في تحقيق المشروع ، ويأخذون باعداد المؤونة والذخرة ، فيشترون شيئاً من الفاصوليا والطحين والشاي والسكر والتبغ ، والمعاول والمجارف وغيرها من الادوات ، يجمعونها حزماً متينة فيحملونها راجعين الى مركزهم في المنجم المكتشف.

وسرعان ما يقيمون كوخاً يسعهم وادواتهم . ثم ينصرفون بنشاط لا يعرف الملل الى غسل الرواسب الذهبية ، يوالون ذلك طول الصيف حتى تسقط الثلوج الاولى . ومنهم من يقضي فصل الشتاء القاسي في تلك البلاد الشمالية ، لا بغسل الذهب المتعذّر اذ ذاك ، بل باصطياد الحيوانات ذوات الفرو . فتكون فائدتهم مزدوجة . على ان كثيراً ما يصيب بعضهم المرض الناتج عن كثرة الذهب ، الا وهو اللعب . فيقضون اياماً وليالي حول طاولات يبذرون عليها ما كانوا قد تعبوا ونصبوا في الحصول عليه . وليس بالنادر ان يرى اللاعبون على طاولاتهم ، الى جنب الاوراق والكوم الذهبية ، عدداً من المسدسات

المحشوة ينظر اليها الخاسر والرابح بقلق ورعبة...

ولا يطول عادةً استثمار تلك المناجم . لأن المشتغلين فيها يكونون من ذوي المطامع فلا يرضون بالقليل من الارباح. وهم اذا ما قلّت فائدة المستخرَج، او اذا لم يتمكنوا من بيع ما يستخرجونه بثمن مقبول، ضجروا من الاقامة في تلك الاصقاع، فجمعوا ما تيسّر لهم، وعادوا الى اوطانهم، تاركين المنجم، ولا ربّ له، عرضةً للمحتلّ الجديد.

وعلى الغالب يكون هذا المحتلّ من الصينيين المفطورين على الدأب والصبر . فيدخل المنجم المتروك، ويسكن في كوخ من تقدّمه بعد ان يصلح منه . فيعيد غسل الرواسب، جامعاً ما تساقط عن مائدة الرجال البيض من الفتات . فيجدّ مكتفياً بالصمت والاسرار حتى لا يعرف احد ما يستخرج وما يربح . واذا سُئل عن شيء، اجاب بهمّ وتعب : «اني لا اكاد اعيش الّا بالمشقة . فانا لا انال ٢٥ سنتاً او شليناً بالنهار.»

هذا ولا ينال مراقبو المناجم الرسميّون من الرجل الصيني اكثر ممّا تقدّم صراحةً ووضوحاً . فلا يتوقّفون لمعرفة حقيقة ارباحه على طريقة من الطرق . فان ارباب الخانات واصحاب الحوانيت لا يرون بين يديه شيئاً من الذهب الّا في ما ندر . وعليه فلا يمكن احد ان يقدر دخل المنجم الذي يستغلّه . الى ان يأتي يوم فيسيّر فيه الصيني، مع رفيقه الامين المخلص، سبيكة من الذهب الخالص تقطع حواجز المراقبة، فتدخل بلاد الصين دون ان تراها عين او تلمسها يد...

وقد توقفت حتى الآن عند وصف المنجم الصغير الذي يعدّن الانسان فيه .ترين مكتبين في النهار على الاكثر . ولا تتجاوز مساحته ٢٥٠ قدماً في ١٠٠ قدم . فيتركه بعد ان يستخرج منه ما تساعده السهولة على استخراجه . حتى اذا كثرت هذه المناجم المتروكة، فكّر في استغلالها ارباب الرساميل القويّة فدرسوا منها العشرات على خطّة واحدة مستعينين بالمهندسين الاختصاصيين . فاذا اتمّوا تصميم المشاريع، بُوشر العمل . ويكون أوّله بان تُبنى الخزانات في مجاري الأنهر والسواقي، فتُنشأ الشلالات الاصطناعية، ويؤتى بالمحرّكات

البخارية القوية التي تدفع نوافير الماء بقوة هائلة على الرواسب المتراكة فتحل اجزاءها وتفرز الحصى من الرمال من التراب . ثم يجر كل ذلك في السواقي الناتجة عن تلك النوافير الى احواض فسيحة تركز فيها تلك السوائل فيرسب في قعرها الذهب ، وتتصرف المواد الباقية في منافذ مختلفة استدارة وعلواً باختلاف المادة الخارجة .

وعلى هذه الطريقة يمكن المستخرج ان يغسل في الستة الاشهر ، وهي مدة فصل العمل هناك ، من ١٥٠,٠٠٠ الى ٢٠٠,٠٠٠ متر مكعب من تلك الرواسب . وكثيراً ما كان المتر المكعب الواحد يأتي بنتيجة ذهبية تعادل الدولار في ناحية كريبو من شمال كولومبية البريطانية .

هذا وان للاميركيين مبدأ يطبقونه في تلك البلاد القصية ، القليلة العملة ، والغالية الاجور ، وهو مبدأ الاستغناء على قدر الامكان عن اليد العاملة ، وشغل الآلات جهدها . وهم على الغالب ينجحون ، فيعمل الرجل منه ما يعمله العشرة من غيرهم .

وقد حان لنا الآن ان نوجه نظرنا ناحية سورية، فترى هل يمكن ان نؤمل لذهبها مستقبلاً يشبه ، وان عن بعد ، ما ذكرناه من حالة بلاد الذهب الاميركية . نقول ذلك بطريقة نسبية كما لا يخفى . على ان المقصود هو ان نعرف هل يمكن استخراج الذهب من سورية على طريقة صناعية عملية تؤمن للناس نتيجة مقبولة ، اذا ما وضعوا في ذاك المشروع شيئاً من اموالهم .

(للبحث صلة)

الزواج

« Casti connubii » تبعاً للرسالة البابوية

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

منشأ الزواج من الله وضعاً وطبعاً

٢

٤ اصل الزواج في زعم التطوريين

يزعم التطوّريون انّ الانسان نفسه هو من سلالة جدّ حيواني ، ولم يبلغ فطرته الحالية الا بعد ان تقلّب طويلاً راقياً من نوع الى ما هو اعلى منه . وطبقاً لهذه النظرية يدّعون ايضاً انّ الزواج ، على ما تعهده الامم المتمدنة ، انما هو احدى المراحل التي يجتازها النوع البشري في تطوّراته المتواصلة . فبعد ان كانت صلات الرجال بالنساء على مثال صلات الحيوانات ذكوراً واناثاً ، تطوّرت هي ايضاً فاجتازت عدة مراحل منتقلة من القِران الطليق الى القران الوقتي ، فالى الخطف ، فالى شراء الزوجة ، فالى تعدّد الازواج ، فالى تعدّد الزوجات ، فاخيراً الى الزواج الموحّد الثابت [١].

هذا فيما يتعلّق بالماضي . واما المستقبل فيقولون انه سوف لا يختلف عن الماضي ؛ بل ، بعد ان بلغت البشرية حدّ الزواج الحقيقي ، تواصل السير الى الامام والرقي على تمادي الازمان.

وقد تعجب من هذا وتقول : ان التقدم الذي ينشدونه ويبشرون به ،

---

١) راجع de Smet في المحل المذكور ص ٦٢ — ٦٨ .

ولاسيما ما شرع يتمّ منه فعلاً ، كالطلاق وما لا يخجل البعض ان يُعدّه من الحب الطليق وخرق حرمة الزواج الحقيقي وغيرذلك من ضروب الخلاعة المختلفة، انما هذا كله هو اشبه بالتقهقر منه بالرقيّ ، لانه عودٌ الى المراحل الهمجيـة الاولى ، الى وقت فيه كان الانسان ، على زعمهم ، اقرب الى اجداده البهائم منه الى الامم العريقة في الحضارة.

فيجيبونك : لا بأس فانّ التطوّر من نفس طبعه ينفي الثبوت . فـلا يمكن ، والحالة هـذه ، ان تقرّ نواميس القِران على قرار . فـالزواج يتبع الاخلاق ، والاخلاق ايّةً كانت ، في الجماعات الراقية ، هي التي تحدّ ، بمنطوق الشرائع المسنونة لكل زمان ومكان ، مراحل التقـدم . ومن ثمّ فالعـدل والصلاح انما تُقرّهما الشرائع المدنية ، مهما كانت صبغتها ، لانهـا تُعبّر عن الافكار والمبادئ السائدة في بلاد معينة ووقت معيّن .

وعليه فان اشكال القران التي ذكرناها آنفاً ، والتي يدّعون هم ان الانسان تدرّج فيها قبل ان يعمد الى الزواج الحقيقي ، كانت باجمعها ، وكل واحد منها بدوره ووقته ، معقولةً مشروعة في عرفهم . بل قد تكون كذلك كلها معاً في آنٍ واحد ، وان في امكنة مختلفة من المعمور ، على حسب درجة الحضارة التي بلغ اليها سكان كل بقعة بمفردها [1]

ولا عجب . فان الله في زعمهم لم يدخل البتة في امر وضعيـة الزواج ولم يقيّده ابداً بشريعة ما وضعية ولا طبيعية ، بل البشر هم الذين استنبطوه وحدهم واصطلحوا عليه من تلقاء انفسهم . فتكون النتيجة المبنيـة على هذا المبـدأ الاعوج عوجاء ولا مشاحة ، الّا انها بديهية . ومؤدّاها أن الزواج منوط بالبشر دون سواهم . فلهم ان يُلغوه ويحوّروا سننه على ما يطيب لهم.

قال بيوس الحادي عشر : « فلكي نبتدئ بمصادر هذه الشرور نقول انه اصلها الاهم هو زعمهم ان الزواج لا بارئ الطبيعة وضعـه ولا السيد المسيح رفعه الى مقام سرّ حقيقي ، بل انما البشر قد اخترعوه . ويؤكد بعضهم انهم ،

---

(١) راجع D'Hulst, *Carême 1894*, *1re conférence*, édition de l'Enseignement Chrétien, p. 9.

في الطبيعة ذاتها وفي نواميسها ، لم يجدوا شيئاً من امر الزواج ، بل انما عثروا على قوة توليد الحياة ودافع قويّ الى شفاء غلتها على اي منوال كان . على ان غيرهم يقرّون بان في طبيعة الانسان بعض اوائل واشباه جراثيم للزواج الحقيقي ، من حيث انه لولا ارتباط الناس بوثاق ثابت ، لما كانت كرامة الزوجين والغاية الطبيعية من ولادة البنين وتربيتهم قد عُني بهما عناية وافية . غير ان هؤلاء ايضاً يعلّمون ان الزواج نفسه ، بما انه لا ينحصر ضمن نطاق هذه الجراثيم ، فلاسباب مختلفة طرأت عليه معاً ، قد اخترعه عقل البشر وحده وانشأته ارادتهم وحدها.» (1)

تلك هي مصادر اضاليل اعداء الزواج . واما عواقبها فاليك وصفها ، على ما ورد في الرقيم الحبري :

«اما مبلغ تورّط هؤلاء في الضلال وانحرافهم الشائن عن طرق الاستقامة فقد اضحى ثابتاً بما بسطناه ، في رسالتنا هذه ، عن مصدر الزواج وكنهه ، وعن الاغراض والخيرات التي فيه . واما كون هذه الاقاويل وبيلة الغاية فانه يتضح من النتائج التي يستخلصها منها المدافعون عنها انفسهم . فاذا كانت الشرائع والرسوم والآداب التي تُنظِّم الزواج مصدرها ارادة البشر وحدها ، فلهذه دون غيرها يمكن ويجب ان تخضع ، وبالتالي يمكن ويجب ان تُسَنّ وتُحوَّر وتُلغى على حسب هوى الانسان ووفقاً لتقلبات الامور البشرية . اما القوة النسلية فبما انها ترتكز على الطبيعة عينها فهي اقدس من الزواج واوسع مدًى منه ، ومن ثم يجوز استعمالها على السواء خارجاً عن حصن الزيجة كما في داخله ، وذلك حتى باهمال اغراض الزواج ، اي كأنَّ خلاعة البغي تتمتع ، او تكاد ، بذات الحقوق التي تتمتع بها الامومة العفيفة التي للزوجة الشرعية .

«واعتماداً على هذه المبادئ ، قد توصل البعض الى استنباط اشكال من الزيجات جديدة توافق ، على زعمهم ، مقتضيات الناس والازمنة الحاضرة ، ويشاؤون ان تكون انواع زيجة جديدة : فمنها الزواج الموقت ، ومنها الاختباري ،

(1) الرسالة *Casti connubii* ص ١٦ .

ومنها الودادي . ويدّعون ان لكل من هذه الانواع حرّية الزواج تامةً وحقوقه كلها ، ولكن مع الانعتاق من الرباط غير القابل الانحلال ومن ولادة البنين ، ما لم يحوّل الفريقان اشتراكهما في المعيشة ومساكنتهما فيجعلاه زواجاً شرعياً . »

« بل من الناس من يريدون ويُلحّون ان تُقرَّر بالشرائع تلك الغرائب الفظيعة ، او على الاقل ان يكون لها عذر في ما عمّ من عادات الشعوب ونظاماتها . فكأنه لا يخالجهم بعض الظنّ انّ اموراً كهذه ليست على شيء من ذلك الرقي العصري الذي يباهون به تلك المباهاة ، بل هي مفاسد معيبة تخضع ، بلا ريب، الأمم الراقية ذاتها لما تألفه بعض الشعوب المتوحشة من الاعمال البربرية . »[1]

٥ً تأصل الزواج في الطبيعة

اما الحقيقة فبخلاف تلك الاقاويل الغريبة . فانه ليس فقط من الايمان أنّ الزواج من وضع الله عزّ وجل ، كما بيّنا سابقاً ، بل لو ضربنا صفحاً عن اي شريعة وضعية، سواء أكانت موسويّة أم مسيحية، ولو فرضنا انه تعالى لم يدخل قط في امر قران الرجل والمرأة كيما يُفصح لنا عن رأيه ومشيئته فيما يتعلق به، لو اعتبرنا الكتاب المقدّس والتقليد المسيحي لا وجود لهما البتة ، لما زال الزواج مُنشأً من الله ، لانه حتى في حالة الفرض المذكور، لا يزال مُنشأً من الطبيعة.

والمعنى ان الزواج مرتكز على طبيعة الانسان . فهي التي تقتضي وتُحدّد شرائعه . ولا شك ان شرائعه هذه يستطيع العقل البشري سبيلاً الى معرفتها فتُقيّد الضميرَ على نحو سائر الشرائع الطبيعية.

٦ً اصل الزواج تظهره اغراضه

وقبل ان نبسط الادلة العقلية التي تدعم قولنا هذا ، لا بدّ من كلمة وجيزة في المبدإ الاساسي الذي تستند اليه . وهو انّ مسألة اصل الزواج مرتبطة كل

١) الرسالة عينها ، ص ١٩ — ٢٠.

الارتباط بمسألة غائيّته . ومن اهم ما أدّى بالتطورّيين الى ضلالهم تغاضيهم عن الغائيّة هذه . فانما ضلوا عن حقيقة اصل الزواج لانهم لم يدركوا كنه اتحاد الرجل بالمرأة ، ولم يدركوه لانهم تغاضوا عن اغراض الطبيعة منه.

ولا غرو فمن المبادئ الفلسفية المأثورة . أنّ « الفاعلية تتبع الكيان » (*Operari sequitur esse*) وما ضرَّ هذا المبدأ انه قديم قد يقول عنه البعض ان الدهر اكل عليه وشرب ، فلا سبيل الى صاحب العقل السليم ان لا يسلّم بمنطوقه . ومؤدّاه أنك ان شئت ان تقف على حقيقة شيء وطبيعته فعليك ان تمعن النظر في غايته ونزعاته ، وانما هذه تشفُّ عنها فاعليته اي ماهية الافعال الخاصة به لانها هي التي تنوّعه.

وخلاصة القول ان اصل الزواج وغائيّته هما حقيقتان مرتبطتان متلازمتان. فان كانت الاغراض ، التي عينتها الطبيعة لاتحاد الرجل والمرأة ، هي بغنى عن الزواج الحقيقي ، جاز لهما ان يقترنا بمعزلٍ عنه . والّا اي ان كانت هذه الاغراض لا تُحقَّق الا به وداخل حصنه ، تحتّم عليهما ، بقوة الطبيعة عينها ، ان يتقيَّدا به ويخضعا لسننه ، اذا ما شاءا الاتحاد.

وواقع الحال ان الاغراض المذكورة تستوجب الزواج الى حدّ ان من أهمل سنّته او استخفَّ بها او اتى ما يخالفها فقد اتى نقيض ما تقتضيه الطبيعة الانسانية وتستوجبه ، من جهة ، فطرةُ الافراد صيانةً لكرامتهم ، ومن جهة اخرى ، حياةُ النوع البشري ذاته ، لئلا يؤول الامر به الى التلاشي والاندثار ، فيعود باجمعه الى العدم[1].

هذا ما سنبينه فيما يلي بادلة ثلاثة :

٧ الادلة على تأصل الزواج الحقيقي في الطبيعة

١ – صيانة الكرامة البشرية في القرينين

معلوم ان اتحاد الرجل والمرأة ينشأ عن قوة خاصة ، غريزية في كل بشر ،

---

١) راجع Dictionnaire Apologétique de la Foi Catholique, art. « *Mariage et Divorce* », par Castillon, tom. III, col. 88.

تدفع كلًا من الجنسين نحو أخيه . واول مـا ترمي اليه هذه القوة ويشفّ عنها معاً ، هو الحدُّ الاول الذي تنتهي عنده حركتها ، اعني به التقارب الجنسي . تلك هي غاية القران الاولى وانما هي ، على ما سترى ، واسطـة لغاية اسمى منها بدرجات .

ولكن قبل ان نتعدّاها ونرتقي بالبحث الى ما هو ارفع منها شأناً ، يجدر بنا ان نستثبت مما اذا كان يمكن تحقيقها خارجاً عن حصن الزواج الحقيقي ، دون ان ينحطّ الرجل والمرأة عن كرامتهما . وبعبارة اخرى هـل يُبقي لهما القران الطليق وما يشاكله من المخالطات المتنقّلة ، شيئاً من المنزلة السامية التي تستوجبها فطرتهما العاقلة ؟

لعمري ان القران الطليق وسائر الصلات التي تجري مجراه ، من شأنها ان تهبط باتحاد الرجل والمرأة الى ما هو اسفل من علاقات البهائم بالبهائم .

تأمل في الحيوان . فانه لا عقل له يُرشده ولا ارادة له تتدبّر أمره . وانما ينقاد لفطرته العمياء . ومع ذلك لا يعهد جنساه الى المواصـلة ولا يطمحان اليها الا لداعي النسل وانماء النوع ، ما لم تكن تربيـة الانسان له او لاحد أسلافه أفسدت جبلته . والسبب في ذلك ان قوة النسل فيه هي التي تُعدّل حركاتها بذاتها .

واما الانسان فبالخلاف . خصّته الطبيعة بالعقل والارادة . فبالعقل يدرك النظام وما يقتضيه من المقدار وظروف الاشخاص والكيفية والزمان والمكان . وبالارادة يقوى على مطابقة اعماله للنظام ومقتضياته . فليست اذن القوة الغريزية العمياء هي التي تُعدِّل فيه ذاتها بذاتها ، بل انما قـد وكل جابل الطبيعة هذا الامر الى العقل والارادة .

وغني عن البيان ان هـاتين القوتين العاقلتين الروحيتين انمـا تقوم كرامة الانسان وشرفه بهما ، ومنهما رفعته فوق عالم البهائم وسيادته على سائر الخلائق المنظورة .

فاذا اعتبرنا هذا من جهة ، وعلمنا من أخرى كيف تُرهق القوة النسليـة من ينقاد لها عن عمى ولا يدأب في قمع حركاتها ، تيقّنا ايضاً ان القران الطليق

انما مآله اطلاق الحرية تامةً للخلاعة والفحش ، فتسود الفوضى في المركّب الانساني ، حيث لا مكنة بعد للقوى العليا ان تراقب السفلى ولا ان تُلزمها حدّها ، فيُمسي ابن آدم كما لو كان فعلاً عديم العقل والارادة ، تخلّى عنها لنزعاته الحيوانيــة فتخلّى ايضاً بنفس الفعل عن كرامته ومقامه الاعلى بين الكائنات المحسوسة.

ويا ليت الفوضى الموصوفة لا تتسرّب من الافراد والى الجماعات ، على ما نرى لسوء الطالع في واقع الحال ، مع كوننا نعلم حق العلم ان الناس عموماً يمقتون ، في الاقل مبدئيًا ، كل ما جاء منحرفاً من حركات القوة المذكورة، ويحسبونه امرًا شائنًا، بل نراهم يستترون حتى ما جاء منها مطابقاً للنظام منحصرًا في حصن الزيجة الشرعية ، مما يدل جليًا على ان الحياء طبيعيٌّ في البشر.

واذا كان البشر منتشرًا بينهم فساد الاخلاق ، بالرغم من رسوخ مبدأ الحياء في البابهم عموماً ، فكيف بهم لو نبذوه ؟ أوَ لا ينبذونه تماماً لو أقنعوا أنّ سُنّة الزواج ليس الخالق وضعها ولا هو أسسها على الطبيعة ، بل انما هي على ما يدّعي بعض اشياع الحبّ الطليق ، وهمٌ باطل عالقٌ في الاذهان . أم لا يُمسي اذ ذاك المجتمع البشري كما لو كان مؤلّفاً من طوائف السباع ، بل احطّ منزلة.

قال الاب كوله : « ان كان من نزعة غريزية تُعرِّض بالانسان للانحطاط عن المقام الرفيع الذي تقتضيه له جبلته ، من حيث هو عاقل حرّ ، فتنزول به الى درجة الحيوان الصرف ، فهي لا محالة تلك التي تدفع المرء والمرأة الى ان يتكاملا .

« فانه لما كانت غايتها ضمان البقاء للنوع ، فقد اضحت اثقل النزعات كلها ارهاقاً للانسان ، بعد تلك التي تميل به الى حفظ الكيان الفردي.

« على انها ايضاً اشدُّها عمىً وأنانيةً وفظاظةً وتقلباً . قوامها الجذابات واندفاعات لا نصيب للعقل فيها . فلا تلبث ، حالما تُحرَّر من التقيد بالضبط والترتيب ، ان تصير من اهول عوامل العسف والهوش والفوضى.

« فاذا ما أُطلق لها العنان فانها تدعُ الحيوان الوحشي يسرح ويمرح في

الانسان بعد ان كان العقل يقيّده ويقوده ، فتختنق فيه عواطف الرقة والحياء والنبل والرفق . وبما انها من طبعها عادمة القرار متقلّبة ، لا تشعر بما ليس اياها ، وما من ضعف ترأف به ، ولا من ضيقة تكترث لها ، ولا من وعد تراعي حرمته ، ولا من واجب تعتبره ، ولا من تبعة تخشاها ، وقصارى القول بما انها لا شيء يهمّها ولا احد ، فانها تدفع من تمكنت منه الى ان يطأ برجله بدون ما شفقة ، كل ما قام دونها حاجزاً .

« ومع ذلك كله فلا سبيل الى النكران ان هذه القوة العنصرية المريعة الى حد ما وصفنا ، هي من اثمن ما كمن فينا من شكلها ، راقدًا او هائجاً ، بل هي اهمّ ما ينبغي ضبطه كيما يُستخدم في سبيل البشرية ، بدون ما مجازفة بكرامة بني الانسان ، بل بحياة مجتمعهم .

« افلا يكون ، والحالة هذه ، من ابدع مآتي الوضعية الزوجية انها قد جمعت نوعاً ما ، بين اليقظة الاولى لهذه النزعة الغريزية ، الهائلة عاقبة والعظيمة شأناً ، وبين ما تأصل في القلب من عواطف الرقة والتفاني وبذل الذات تماماً وحتماً ، مما لا بد ان يُبنى عليه الزواج اصلاً وأساً ، — وأنها ايضاً قد أناطت شفاء علّة هذه القوة بما تنصّ شريعة الزيجة من الترتيبات والفرائض والمناهي ، — وانها اخيرًا قد قيّدتها بالخضوع لوضعية اجتماعية ، تقتضي من الانسان كل ما يستطيع ان يجود به من الحب وبذل النفس والامانة ؟

« فاذا ما جاء الميثاق الزواجي البات ، يستر هذه القوة عن اذى سرعة تقلّبها الفطرية وتغييراتها المدهشة المقلقة ، فأنيطت بانبل الغايات وارفعها شأناً ، تلك التي تقتضي من الثبات اشدّه وتجرّ من التبعات أبهظها ، واتقيدت متلبّسة ثياب الضعف والقدرة في غير صاحبها ، واضحت كأنها اكتسبت مزية روحية من نفس الغايات الشريفة التي ظلّت تتقيد بها ، فعندئذٍ لا تحول دون ذاك النمو الروحي ، الذي لا مندوحة للمرء عنه ، ما دام يبتغي ان يسود فيه الروح على الجسد والانسان على الحيوان . »[1]

---

1) Coulet, *L'Eglise et le Problème de la Famille*, « Editions Spes », Paris, tom. 2, pp. 34-36. (له صلة)

مشاكلنا الادبية الحاضرة

وصلتها بالادب الغربي

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

القديم والجديد — الوحدة في الشعر العربي القديم

توطئة

مرّ زمنٌ كان يعتقد فيه جمهور العرب ، بكل سذاجة واخلاص ، ان لا بلاغة خارج لغتهم ، « سيدة اللغات واشرفهنّ مكاناً واحسنهنّ وضعاً » ، وان لا فصاحة « للاعاجم الطمطمانيين » ، وان لا ادب يستحق الذكر الّا « لابناء الضاد » . وانقضى عصرٌ كان يتساءل فيه ادباء العرب ، بكل جدّ ورزانة ، هل في الامكان وجود شعر اعجمي يضاهي شعرهم جزالةً وفصاحة؟ . . وكاد يضمحلّ عهدٌ يدعي فيه نقدة العرب ، بكل ايمان وجرأة ، ان آدابهم اغنى الآداب جماء ، وان لغتهم بحر خضم عظيم تصبّ فيه سائر اللغات . . . فاصبحنا اليوم واذا بالاديب الحقيقي يترك هذه القوالب التقليدية للشعراء يرتّون على نظمها قرائحهم الجامدة اذا ما اعوزتهم الموضوعات ، وللخطباء يقرعون بها المنابر في الاحتفالات فيسترقون التصفيق من « حاملي لواء اللغة ورافعي منارها » . يترك كل ذلك لمستغلّيه من غارّين ومغرورين ، ويميل الى درس الآداب درساً موضوعياً يترفّع عن التعصب والانتقاص ، ويجتهد في الوصول الى الانصاف على قدر الامكان ، فينيل كل

ذي حقّ حقه دون زيادة ولا نقصان. وهو ، اذا فاضل بين ادب وادب ، ولغة ولغة ، محّص وقابل ووازن ، فاعطى ما للعرب للعرب ، وما للاجانب للاجانب.

على اننا نرى بعض ادباء العصر ، في سعيهم المشكور للتخلص من تلك الاحكام السابقة ، يقعون في النقطة المعاكسة ، فلا يرون شيئاً صالحاً عند العرب ، ولا شيئاً فاسداً عند غيرهم . تلك شريعة ردّ الفعل تنقلهم من تطرّف الاقدمين السيّء العاقبة الى تطرّف حديث قد يكون اسوأ مغبّة واوخم نتائج . فلا يندر ان نراهم ينصحون ادباء العربية بالانصراف عن فنون ادبهم من قديم وحديث الى النقل والتعريب والسير على اساليب الغرب . وهم في دعوتهم هذه لا يقفون عند حدّ ، ولا يأخذون باحتياط ، ولا يهتمون بما عساه يفيد وبما عساه يضرّ من تلك الآداب الغربية عنّا . بل يكتفون بان يقابلوا بين الادب الغربي وبين ما عرفوه من ادب العرب — وقد يكون ما عرفوه قليل الخطر ضئيل القيمة — فيحكمون على الاول بالجمال والكمال وعلى الثاني بالقبح والنقص ، يحكمون على الاول بالابتكار والحركة ، وعلى الثاني بالتقليد والجمود . فيحملون على ما في ادبنا من اساليب ، دون تمييز ؛ ويأخذون بما في ادب الغرب من طرق ، دون تحفظ كذلك. ومما يؤسف له ان اكثر ادبائنا هؤلاء مخاصو العقيدة ، غُيُر على مصلحة اللغة . على ان الغيرة والاخلاص لا يكفيان ، ولم تكن النيّة الحسنة وحدها لتُصلح من ادب او تُجدّد من لغة.

وقد دفع افتتان هذه الفئة بتقليد الادب الغربي مناوئيهم من ارباب المذهب الاول الى الثبات في مواقفهم والجمود في مراكزهم، خوفاً من هذه الحملة التي تصوّروها مدبّرة مسيّرة على الادب العربي . فكان من ذلك ان مضى كل فريق في آرائه وآثاره ، يعدل حيناً ويتطرّف احياناً . وتزيد الشقة ، على كل حال ، بعداً وخلافاً . الى ان افقنا ، واذا في ادبنا مشاكل عدّة منها ما يمسّ موضوعات التفكير والتأليف، ومنها ما يمسّ طرق التعبير واساليب الاداء ؛ منها ما كان قديماً فزاد تعقيداً والتباساً ، ومنها ما نشأ حديثاً فاضاف الى ما تقدم صعوبةً واشكالاً.

هذا ومعلوم ان مجالنا اليوم لأضيق من ان يتسع لذكر تلك المشاكل جميعها. فنترك جانباً كل ما يمتّ بصلة الى موضوعات الايجاد واساليب التأليف مما يُعرف بالادب الانشائي او « بالادب » بحصر المعنى . ونكتفي بما يمسّ النقد الادبي ، واسلوب البحث في تلك الآثار الادبية. ونكتفي اليوم من هذا ايضاً بمظهرين : اولهما مشكل عتيق زادته الصلة بادب الغرب تعقيداً والتباساً ، اعني به النزاع بين القديم والجديد . وثانيهما مشكل حديث تولّد عن المقابلة بين ادبنا وادب الغرب ، وهو الوحدة في الشعر العربي القديم.

القديم والجديد

ان النزاع بين القديم والجديد عريق في القدم . فهو النزاع التقليدي بين الماضي والحاضر ، وبين الحاضر والمستقبل. بين الشيوخ والشبّان ، وبين الآباء وابنائهم ، في طرق العيش واستخدام مرافق الحياة . وكذلك في النظر الى مظاهر الهيئة الاجتماعية ، والادب منها . وان يكن هذا النزاع لم يظهر شديداً في عصور ادبنا الاولى ، فلأن الشرقي ، وخصوصاً السامي ، مفطور على التقليد ، يصعب عليه ان يترك سبيلاً مطروقاً اختطّه جدوده وسهّله آباؤه الى الاندفاع في سبيل لا يعرف اين ينتهي . وعليه فلم يشعر بحاجة الى السير على اسلوب غير الذي سار عليه سلفاؤه . وهو اذا اتى الجديد ، فانه يأتي عمله إمّا تقليداً لأمر خارجي رآه ، فتأثر به ، فتبعه كما كان يتبع غيره ، او إجابةً لداعٍ عنصري غريب قام به احد ادباء العربية من غير العرب . ولهذا نرى ان دعاة التجديد في الاعصر القديمة كانوا من غير العنصر العربي ، كابي نُواس وبشّار الفارسيَّين في محيط الادب ؛ والفارابي التركي في مظاهر الموسيقى ؛ والفارابي ايضاً وابن سينا الفارسي في مجالي الفلسفة واساليب التفكير.

هذا في ما خصّ النزاع بين القديم والجديد على الاطلاق . اما نزاع ادباء عصرنا فهو مبنيٌّ ايضاً على التقليد . . . فبينا يقلّد انصار القديم او المحافظين طريقة القدماء من العرب ، يقلّد دعاة الجديد او المجدّدين طريقة الغربيين ؛ على الرغم من ان هذه الطريقة ، في حدّ ذاتها ، قديمة في الادب الذي اقتبست

منه . وليس فيها من الجدّة الّا انها جديدة في الادب العربي في نظرة المحافظين ، وفي نظر المجدّدين ايضاً ، اذا ما قارنوا — وقد فعلوا — بينها وبين ما يرونه من الاساليب في الادب الغربي . واذاً فالجدّة هنا امر نسبي يخاف منه بعض مناصري الادب القديم فيحاربونه تجديداً مضراً ، ويؤخذ به بعض دعاة الجديد فيبشرون به تجديداً نافعاً . وقد لا يكون بين اكثر المحاربين والمبشّرين من درس عن تعمّق وتبصر قيمة هذا « التجديد » بحد نفسه وما يستند اليه من اساليب ، وقيمته بالنسبة الى الادب العربي .

وعلينا ان نقف قليلاً امام لفظة التجديد فنجتهد في البحث عمّا تنطوي عليه من المنافع او المضارّ :

لا خلاف في ان المجدّد او الجديد في الامور المادّية يكون غالباً على كثير من المنفعة . فالبيت الجديد افضل من البيت القديم ، والمركبة الجديدة احسن من المركبة القديمة ، والحكومة الجديدة قد تكون في نظر العامّة انفع من الحكومة القديمة . وما ذلك الّا لأنهم يختبرون منافع الجديد ، او هم يتفاءلون بجدّته دون ان يختبروا شيئاً منه . غير انه على الادباء الّا يؤخذوا بهذه المشابهة اللفظية بين بيتٍ من الحجارة جديد وبيت من الشعر جديد . فقد يكون التجدد النافع الجميل اللذيذ في الامور المادّية والمدنية ضارّاً قبيحاً تافهاً في امور العلم والادب[1].

ان مبدأ ارخميدس في الاثقال قديم ؛ فهل يكفي ان نرى مبدءاً جديداً لنتملّق به تاركين ذاك القديم لكونه قديماً ؟ وهندسة اقليدس قديمة ؛ فهل تكفي جدة هندسة اينشتين مثلاً لاقرارها محل الاولى ؟ وهكذا القول في الشؤون الادبية ايضاً . فان وصف امرئ القيس للفرس قديم ؛ فهل يكفي ان تكون قصيدة في الموضوع نفسه جديدة لتصير افضل من ذاك الوصف القديم ؟ وكتاب « ايها الولد » للغزالي قديم ؛ فهل يكفي ان نرى نصائح والد عصري لولده حتى نفضلها على ذاك الكتاب القديم ؟ هذا فضلاً عن ان قصيدة امرئ

---

١) راجع في هذا الصدد ملاحظة محمد احمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي ، ص ٣٠-٣١

القيس كانت جديدة بالنسبة الى ما تقدمها ، وكتاب « ايها الولد » كان جديداً بالنسبة الى ما سبقه .. ومن البديهي اننا لا نعني بذلك الجدّة في تاريخ الظهور او العمر ، بل الجدّة في القيمة الادبيـة من ابتكار الموضوع وعرض المعاني واسلوب التعبير ، والّا لما كان من معنى لبرهاننا ، اذ لا يبرهن الانسان عن ان الاول سبق الثاني والثاني سبق الثالث...

هكذا نفهم القِدَم والجدّة ؛ وهكذا فهمها ادباؤنا المتقدّمون . فقال ابن رشيق : « كل قديم من الشعراء فهو مُحدَثٌ في زمانه بالاضافة الى من كان قبله.»[1] وقال ابن قُتيبة : « لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغـة على زمن دون زمن ، ولا خصّ قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبـاده في كل دهر ؛ وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره.»[2]

فاذا اقررنا نسبيّة الجديـد والقديم ، والوهم المأخوذ بـه العامّة وبعض الادباء ، اذ يقارنون بين المرافق المدنيّة والامور الادبية ، فيلصقون ، خطأً او عن غير قصد ، النفع بالجديد والضرر بالقديم ؛ فاننا ننتقل الى ما اثّرت في ادبنا نظرية التجديد المزعومة ، وما جرّت اليه من مقارنات بين الادب العربي والادب الغربي لم يتوحّد فيها الموضوع ففسدت النتائج.

اول ما أُخذ به المجدّدون انهم رأوا خلافـاً بين ادب الغرب وادبنا ، فراحوا ينعون على ادباء عصرنا التقليد ويدفعونهم الى التجديد. وما تجديدهم ، كما قدمنا ، سوى تقليد ، لا تقليد الاقدمين من العرب ، بل تقليد الاجانب. واذاً فهم متفقون والمحافظين روحاً وطريقـةً ، وان اختلفوا موضوعاً . ولا يستنتج من هذا اننا من اعداء التجديد . لا ! ولكننا من اعداء استعمال هذه الكلمات التي تُطلق جزافاً دون ان تدلّ على شيء واضح مقرّر ، في اذهان « القدماء » ولا في اذهان « المجدّدين » ، ومن الصعب ان تـدلّ على شيء واضح مقرّر ، وهي على ما اشرنا اليه من النسبيّة والتقلقل...

اما وقـد رددنا نظرية « التجديد » العصري الى اصلها من تأثير الادب

---

١) ابن رشيق : العمدة — في مقالات علم الادب ٢ : ٢١٤

٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء — في مقالات علم الادب ٢ : ٢١٥

الغربي ، فيمكننا ان نتخطّى الى ظاهرة ثانية لهذا التأثير أخذ بها عدد من النقّاد ، واستندوا الى التجديد ايضاً ، فكان لهم آراء تمسّ الوحدة في الشعر العربي القديم.

الوحدة في الشعر العربي القديم

اطلع بعض ادبائنا على ما في الادب الغربي من وحدة في التأليف ، متماسكة الاجزاء جليّة المظهر ، بارزة بوحدة الموضوع ، ووحدة التنسيق ، ووحدة التعبير . فشعروا بروعة الجمال في ذلك ، وما الجمال الّا تناسق الاجزاء واتحادها في تنوّعها ، وراحوا يقابلون بين هذه الوحدات الواضحة البارزة على اكمل ما يكون وما في شعرنا القديم من اضطراب بدا لهم بيّناً ظاهراً . فحكموا على الشعر العربي القديم بعدم الوحدة ، وقالوا يجب ان نتركه ونجدّد

اما دعوتهم الى التجديد ، اي الى نهج طريقة في الشعر العربي تتصف بوحدة تامّة على نحو ما حدّدناه ، فأمر ممدوح يستحقّون عليه كل ثناء . واما اطلاقهم الحكم على الشعر العربي القديم بعدم الوحدة فمجازفة تنكرها الرزانة والتثبت . بل هو حكم جائر مبني على فساد في المقارنة ولد فساداً في النتيجة . قارنوا بين مظهرين مختلفين لبيئتين متباينتين فوجب ، ولا بدّ ، ان يؤدّي ذلك الى نتيجة متقلقلة مضطربة . اخذوا من جهة تأليف « مؤلّف » سار على قوانين انشائية مقرّرة ، فولّد رائعةً تطابق في جميع اجزائها ما اثبته علماء الادب عن وحدة التأليف ، فكان لنا قطعة فنية كأندروماك راسين ، او بحيرة لامرتين ، او مثل من امثال لافونتين او مقطع من مقاطع سوللي پرودوم ؛ واخذوا من جهة اخرى زفرة « شاعر » لم يكن على شيء من الثقافة الكتابية تأثّر بمنظر اطلال تركها الحبيب ، فانشد قطعة ادبية لا تقلّ روعةً عما تقدم ذكره من آثار الادب الغربي ، وان كانت لا تطابق ما عرفناه بوحدة التأليف . وقد ندعو هذه القطعة معلّقة امرئ القيس او معلّقة طرفة او غير ذلك من الشعر الجاهلي.

اذاً فساد النتيجة في كون الادب الغربي ذا وحدة يجب الاخذ به ، وفي

كون الادب العربي القديم لا وحدة فيه يجب طرحه ، ناتج من فساد المقارنة بين شاعر مثقف « يؤلف » وشاعر لا ثقافة له « يُنشد ».

لا ننكر ان ليس في معلقة امرئ القيس مثلًا وحدة تأليف بالمعنى الذي قدمناه . ولكن لو تعمق في درسها الثائرون على الادب القديم ، لرأوا فيها وحدة حقيقية طبيعيةً اكثر منها تأليفية ، بديهيّة اكثر منها صناعية ، وهي وحدة الشعور او وحدة التذكار.

يقف امرؤ القيس ، او غير امرئ القيس ، على رسوم واطلال تدفعه الى البكاء اذ يتذكر من كان فيها من الاحبة ولا غرابة في ان تذكار الاحبة المنبعث عن مشهد الاطلال يدفعه الى تذكر ما كان يقضيه من « الايام الصالحة » مع اصحاب تلك المنازل المهجورة . وتذكار تلك الايام يدفعه الى وصف ما كان يقوم به فيها من الصيد لارضاء حبيبته وصواحبها . وايّ غرابة في ان وصف الصيد في يوم ماطر كثير الصعوبات — وهو اعلق بالذاكرة من يوم صيد لا صعوبات فيه — يدفعه الى وصف المطر ووصف الجواد !.. وفي كل ذلك وحدة شعورية او تذكارية يلمسها كل من تعمق في درس اكثر المعلقات وما اليها من الشعر الجاهلي « المطبوع » ، وان كانت لا تطابق الوحدة المعروفة في الادب الغربي . فهذه وحدة موضوعية (objective) تختصّ بالتأليف نفسه على الاكثر ؛ وتلك وحدة نفسية داخلية (subjective) تختصّ بشعور المنشد . وكون القوانين الادبية العصرية لا تشير الى هذه الوحدة الشعورية النفسية لا يكفي لنحكم بعدم وجودها في الادب العربي القديم ، ومن ثمّ بوجوب اطّراح هذا الادب.

اما سبب الخلاف بين الوحدتين فناتج من ان قوانين التأليف وقواعد الانشاء مقررة عند الافرنج ، وان الشاعر منهم يعرفها ، فاذا نظم ، تمتزج شخصية « الشاعر » فيه بشخصية « المؤلف » . ونحن نرى شيئاً من هذه الوحدة الخارجية في الشعر العربي ، حتى القديم منه ، عندما كان شاعرنا « يؤلف » اي عندما كان يعمل في سبيل غاية محدودة «فيصنع» قصيدة غائية ، نشاهد ذلك في رائية الاعشى مستنجداً بشُريح بن السموءل ، وفي ميمية الحطيئة واصفاً

الضيافة البدوية ، وما يشبهها . ويجرّنا هذا الى تنويع الشعر القديم بالنظر الى الوحدة فنميّز فيه ثلاثة انواع: اولا الشعر «المطبوع» نقصد به الشعر الذي كان يقوله صاحبه بديهةً اي دون تكلف، على اثر عامل نفسي دفعه الى اصعاد زفرة لتذكار عهد مضى ، وهو ذو الوحدة الشعورية التي تقدّم ذكرها . يقابله النوع الثاني وهو الشعر «المصنوع» الذي كان «يصنعه» صاحبه لغاية خارجية كالمدح او الهجاء ، او لغاية نفسية كوصف الهوى فيسير به على اسلوب من تقدّمه من تعدّد الموضوعات ، فيقلّ فيه الابتكار ويشذّ غالباً عن الوحدة الشعورية ، دون ان يتصل بالوحدة الخارجية البارزة في الموضوع الواحد. حتى اذا توحدت غاية المؤلف ، كما رأينا في قصيدتي الاعشى والحطيئة ، كان لنا النوع الثالث من الشعر ، وهو مصنوع ايضاً ، ولكنه على قسط وافر من الوحدة العصرية .

* * *

هذه نتيجة فاسدة جرّ اليها فساد المقارنة السطحية بين الادب العربي والادب الغربي . وهذه المقارنة هي اساس الدعوة الى التجديد كما قدّمنا .

وهناك ايضاً عدّة نتائج لهذه المقارنات ، منها ما يمسّ وجود الملاحم عند العرب ، ومنها ما يمسّ وحدة القافية في الشعر العربي . ومنها ما يتعلّق بالشك في الشعر الجاهلي ، ومنها ما يهتمّ بتدريس الشعر الغزلي ، ومنها ما يقرّر وجوب الاخذ بترجمة القطعة الادبية مقياساً لقيمتها الفنية . وكلها يكتنفها الفساد من اكثر جهاتها ، مما قد نعود اليه في مستقبل قريب ، ان شاء الله !

الصوم الاربعيني في القرن الرابع

في الشرق والغرب

اي في انطاكية واورشليم والاسكندرية وروما

بقلم نصرالله نصرالله (النبك)

٣

ثالثاً : كيفية ممارسة الصوم

ان تباين الكنائس المختلفة في ممارسة الصوم كان اعظم منه في عدد الايام. وعليه يجب ان نبذل قصارى الجهد لبيان كيفية ممارسة الصوم عند كل من هذه الكنائس ، تابعين الخطة التي تبعناها حتى الآن.

وقبل الشروع في هذه الناحية من الموضوع ، يحسن بنا القول ان الكنائس التي كانت تدمج الصوم الفصحي بالصوم الاربعيني ، والتي كانت تفرز احدهما عن الآخر ، كانت تمارس تقشفات اشد صرامة في الصوم الفصحي ، ولا سيا اليومين الاخيرين منه اي الجمعة والسبت. وسبب ذلك انه لم يكن غير الصوم الفصحي في مطلع القرن الرابع (وهو يمتد الى يومين او اربعين ساعة او اكثر حسب الكنائس) وهي الايام التي اشار اليها المخلص في الانجيل: «ومتى ارتفع العروس عنهم فحينئذٍ يصومون».

وعليه وجب علينا في هذا الدرس ان نذكر التقشفات المتممة في الصوم الاربعيني وفي الصوم الفصحي في كل كنيسة.

والتقشفات التي تخص الطعام على نوعين: منها الامساك عن الطعام الى وقت محدود من النهار ، ومنها الامتناع عن اكل بعض الاطعمة.

١ – في انطاكية

كان يُقتصر على وجبة واحدة في النهار ، وحسب عدة نصوص من الذهبي الفم تكون هذه الوجبة عند المساء[١] . لكن *La Didascalie* ينصّ على ان الصوم ليس الزامياً الا الى الساعة التاسعة اي الثالثة بعد الظهر[٢] . على ان هذا التصريح لا ينقض من شهادة الذهبي الفم : ١° لان موضع تأليف هذا الكتاب لا يُعرف بالتحقيق ، وهل هو يتكلم عن عوائد انطاكية او عن غيرها ، فجلّ ما نعلمه ان كاتبه كان اسقف بلدة كبيرة من سورية العليا[٣] . ٢° لإمكان تبدل العوائد على مرور الزمن . واما تصريح « الدساتير الرسولية »[٤] فلا يسعنا ان نتحقق منه ، حسب ظننا ، ساعة الوجبة المحددة ، اقله للذين كان الصوم عليهم اجبارياً لانه غير واضح .

اما الصوم المتبع في جمعة الآلام (الصوم الفصحي) فلم يقع فيه شيء من التبدل حتى الخميس بعد الظهر ، وفي اليومين الاخيرين منه ، فالمشهور ان المسيحيين كانوا يبالغون في التقشفات ، فيمتنعون عن كل طعام من مساء الخميس حتى فجر الاحد . وكذلك يتبيّن جليًا من نصّ « الدساتير الرسولية » : « الجمعة والسبت تمتنعون بتاتاً عن الطعام مواصلين الصوم حتى صياح الديك من ليلة الاحد »[٥] ومن *La Didascalie* : « الجمعة والسبت تصومون صوماً كاملًا ولا تذوقون طعاماً البتة . اجتمعوا كلكم ، لا تستسلموا للنوم ، احيوا الليل في الصلوات والتضرعات وقراءة الانبياء والانجيل والمزامير بخوف ورعدة وتوسلات غير

---

١) *Homel. IV ad Pop. Ant.* ; Bareille, II vol. p. 53 — *Homel. IX ad Pop. Ant.* 6 ; *P. G.* t. XLIX col. 68 — *Homel. X sur la Pénitence* 1 ; Bareille II vol. p. 274. — Cf. St Basile, *De Jejunio, homel. I*, 10 ; *P. G.* t. XXXI col. 181.

٢) *Op. cit.* p. 120.

٣) Cf. Tixeront, *Précis de Patrologie, p.* 123.

٤) Lib. V, cap. 18 ; Pitra, *op. cit.* p. 288.

٥) Lib. V, cap. XVIII, XIX ; Pitra, *op. cit.* p. 288 — Lib. V, cap. XV ; Pitra, *op. cit.* p. 284.

منقطعة الى الساعة الثالثة من الليل الذي يلي السبت، فحينئذٍ تنهون صومكم»[١] وهذا القول يعاد مرارًا في الصفحات التالية.

ويلوح لنا ان الصومين الاربعيني والفصحي في الكنيسة الانطاكية كانا يمارسان بصرامةٍ متماثلة من جهة القطاعة. ففي الجمعة المقدسة، كان المسيحيون ينقطعون عن كل مأكول سوى الخبز والفواكه اليابسة وهذا ما يدعى (*Xérophagie*)[٢] والاطعمة المحظورة هي اللحم، والسمك، والبيض، والحليب، والسمن، والجبن، والخمر، والزيت. واننا نستدلّ من نصوص يوحنا فم الذهب ان الانطاكيين في عصره كانوا يمتنعون عن جميع هذه الاطعمة: لحم الطيور والاسماك (*Homel. III ad Pop. Ant.* 5, *P.G.t. XLIX*, col. 53) ولحم الانعام (*P. G. t. XLIX*, col. 53) «وبكلمة لحم، يقول ڤاكندار، يفهم الآباء عادة كل ما يؤلف الحياة الحيوانية وكل ما يخرج منها. فالبيض والحليب وكل ما يُستخرج منه كانت ولا بد مشمولة تحت هذه التسمية»[٣]. لنطبق هذا المبدأ على الكنيسة الانطاكية. وحسب قول الذهبي الفم ان الانطاكيين كانوا يمتنعون ايضاً عن الخمر والزيت[٤].

وهذا النظام هو الذي كان مرعيًّا عند عامة الانطاكيين. مع ذلك كان يوجد من يقتصرون على تناول الخبز والماء فقط[٥].

٢ – في اورشليم

ليس لنا شهادات صريحة تبين الوقت الذي كان فيه مسيحيو اورشليم يتناولون وجبة الصوم فالقديس ابيفانيوس يقول[٦] ان الصوم لا ينتهي الا عند

---

١) *Didascalie* p. 120.

٢) *Const. Apost.* Lib. V, c. XVIII ; Pitra, *op. cit.* p. 288.
القديس ابيفانيوس يفهم *xérophagie* بالامتناع عن كل مأكول ما عدا الخبز والملح والماء.
(*Haeres.* L. III. *Expos. Fidei* c. XXII ; *P. G.* t. XLII col. 828)

٣) *Dict. Théol. Cath.* art. Carême, col. 1733.

٤) *Homel. IV, ad Pop. Ant.* 6 ; *P. G.* t. XLIX, col 68. — *Homel.* 6ᵉ *sur la pénitence* ; Bareille p. 274.

٥) S' J. Chrys. : *Homel. IV, ad Pop. Ant.* 6 ; P. G. t. XLIX, col. 68.

٦) *Exp. Fidei*, c. XXIII, *P. G.* t. XLII, col. 829.

الماء . ولكن لا ندري هل هو يتكلم عن عادة وطنه (لانه فلسطيني نشأ في فلسطين وسُقّف على قبرس) او يخبر عمّا كان يجري في ابرشيته . واتيريا لا تشير في سياحتها الى هذا الموضوع. نعم انها عند ما تتكلم عن « *stations* »، اي صوم الاربعاء والجمعة ، تقول ان الصوم كان ينتهي الساعة التاسعة [١] . افيمكننا ان نستنتج ان شريعة الصوم الاربعيني هكذا كانت ؟ لا يبدو لنا ذلك لانه ، كما يقول العلامة دوشين، « ان صيامات « *Stations* » لم تكن من الصيامات الكبرى ولم يجاوز فيها الساعة التاسعة » [٢] .

والكنيسة الاورشليمية كالكنيسة الانطاكية كانت تنهي الصوم الفصحي الاحد صباحاً [٣] .

وبخصوص القطاعة ، كان جارياً حسب قول القديس كيرلس الامتناع عن اللحم [٤] ، ومن ثمّ عن البيض والحليب وكل ما يُستخرج منه ، حسب التنبيه الوارد سابقاً . واخيرًا عن الخمر [٥] . وان اتيريا في سياحتها تشير الى القطاعة ، والقطاعة التي تتكلم عنها هي التي يعمل بها فئة من المسيحيين المغالين بالتقشفات والذين يدعون Apotactites ، لا عامة المسيحيين ولذا لا يمكننا ان نجعلها عادة مألوفة عند الجميع . وهذه القطاعة كانت تقتصر على الطحين والماء وتمنع الخبز والزيت والفواكه [٦] .

٣ – في الاسكندرية ورومية

يتعذّر علينا التبسط في التفاصيل الدقيقة عن كيفية الصوم والقطاعة في

---

١) Cf. Dom Cabrol : *Les Eglises de Jérusalem*, p. 135.

٢) Cf. *Les Origines du culte Chrétien* p. 219.

٣) S. Cyrille de Jérus. *Catech. XVIII*, n. 17 ; *P. G.* t. XXXIII, col. 1037.

٤) *Catech. IV* ; *P. G.* t. XXXIII, col. 1010.

٥) *Catech. IV* ; *P. G.* t. XXXIII, col. 490. لكن منع شرب الخمر على الطعام حسب قول فونك (Funck) كان امرًا مندوباً لا واجباً ، وبهذا يفسّر اقاويل الآباء كالقديس كيرلس الاورشليمي والقديس باسيليوس وغيرهم .

٦) Cf. Mgr Duchesne : *Les Origines*. p. 471-482. – Cabrol, *Les Eglises de Jérusalem*, p. 138.

هاتين الكنيستين ، اذ ليس لدينا بينات اكيدة مأخوذة من القرن الرابع ولربما يأتينا بعض المتبحرين في علم التاريخ الكنسي فيميط النقاب عن هذه الحقيقة. لكننا نستطيع القول ان القطاعة كانت تتناول لحوم الانعام واصناف الحليب.

اما لحوم الطيور والاسماك فلا يمكننا ان نبت بمنعها ، لان الكثيرين كانوا ، حسب قول سقراط ، ياكلونها [1] ، لان لحومها لا تعتبر كلحوم سائر الحيوانات ملغية الصوم. وذلك لان السمك يعيش في الماء ، والطيور ، كما جاء في سفر التكوين ، اصلها مائي.

وايضاً لا يمكننا ان نحدد ساعة تناول وجبة الصوم اهي التاسعة ام بعد غروب الشمس. فان القديس ابيفانيوس يقول : « ان ستة ايام الآلام تسمى *Xérophagie* لان جميع الشعوب تقتصر فيها على المآكل الجافة ولا يؤكل الا عند المساء [2]... » لكن تصريح هذا القديس شامل كنائس كثيرة فلا يسعنا تخصيصه باحداها.

على انه يمكننا الجزم بامتناع مسيحي رومة عن الطعام الجمعة والسبت حتى فجر الاحد ، حسب نص ديونيسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية في رسالته الى باسيليد [3]. وبخلاف ذلك في الكنيسة الاسكندرية كان الصوم ينتهي في صلاة غروب السبت العظيم حسب تصريح القديس اثناسيوس [4].

لقد عرفنا بوجه عام عوائد كل كنيسة ولم نتكلم عن التقشفات الخاصة التي كان يمارسها بعض فئات من المؤمنين مثل ال « Hebdomadiers » الذين تكلمت عنهم اتيريا [5] والذين كانوا يصومون كل ايام الاسبوع دون طعام البتة . وال « Apotactites » الاولى كانوا في مدار السنة كلها لا يتناولون الا وجبة في النهار ، وذلك عندما يأكلون. ومن كان من الاولين لا يستطيع صوم الاسبوع بكامله كانوا يفطرون يوم الخميس ، والبعض يأكلون كل

١) *H. E.* V, 22.

٢) *Exp. Fidei*, c. XXII, *P. G.* t. XLII, col. 828.

٣) Cf. Pitra. *op. cit.* P. 541. وهذا التصريح من ديونيسيوس يرينا سبب اختلاف المؤمنين في اخاذهم الصوم السبت مساء او الاحد صباحاً، وذلك وقت قيامة المسيح. فالبعض كانوا يرتأون ان المخلص قام بعد غروب شمس السبت ، وغيرهم يعتقدون انه عند غلس الاحد.

٤) *Lettres festales* ; *P. G.* t. XXVI, col. 1389.

٥) Cf. *Les Origines du culte Chrétien*, p. 481-482.

يومين[١] . وكان كثير من هؤلاء الابطال لا في اورشليم فحسب ، بل في كل كنيسة . فالقديس اوغسطينوس يخبرنا عن شخص طوى الاربعينية بكاملها دون طعام[٢] . وكذلك القديس ايرونيموس[٣] والقديس ايفانيوس[٤] ، والقديس يوحنا فم الذهب[٥] .

وما عدا هذه التقشفات التي اشرنا اليها بما يتعلق بالطعام ، يوجد غيرها كانت مألوفة بين المسيحيين عامة – وبقولنا عامة نعني بعض فئات كالموعوظين الذين لهم عوائد خاصة .

فمن هذه الاعمال نخصّ بالذكر عفة المتزوّجين ، والاحجام عن الاعراس ، ومنع المآدب والولائم ، والانقطاع عن الالعاب العامة وحضور المراسح ، والتوقف عن متابعة الدعاوي الجنائية ، والحكم بالموت .

فعفة المتزوّجين قد حرّض عليها القديس تيموثاوس الاسكندري[٦] والقديس باسيليوس[٧] والقديس اوغسطينوس[٨] . اما الاعراس فقد نهى عن اقامتها مجمع اللاذقية Laodicée في قانونه الثاني والخمسين . وفي ٢٧ مارس سنة ٣٨٠ اذاع غراسيانوس وثاودوسيوس[٩] شريعة يأمران بها بتأجيل اجراء الدعاوي الجنائية في الاربعينية السابقة للفصح[١٠] .

والى هذه الاعمال يمكننا ان نضيف غيرها كالعزلة والصمت التامّ ، واسعاف البائسين ، والاعمال الصالحة والصلوات[١١] .

بقي لنا كلام وجيز عما يفسخ الصوم وعن الشخص المكلف به . فنجتزئ

(١ Cf. Dom Cabrol. *Les Eglises de Jérusalem* p. 135-136.

(٢ *Epist. XXXVI, ad Casulanum* 19 ; *P. L.* t. XXXIII, col. 1481.

(٣ *Epist. XXIV*, n° 4.

(٤ *Expositio Fidei*, 22.

(٥ *Homel. IV ad Pop. Antioch.*, Bareille II, p. 53.

(٦ *Rép. Canoniques* ; *rép. XXXIV*, Pitra, *op. cit.* p. 637.

(٧ *De Jejunio, homel.* 1 ; *P. G.* t. XXXI, col. 184.

(٨ *Serm. CV, CVIII, CIX, CX.*

(٩ *Cod. Theod.*, *L. IX*, titr t. XXXV, leg. 4.

(١٠ Cf. *Dict. Archéol. et Liturg.*, art. Carême, par Vacandard col. 2151-2152.

(١١ Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Jeûnes par Dom Cabrol, col. 2491

بايراد ملخص ما جاء في معجم العاديات والليتورجية المسيحية.

يقول كابرول ان الصوم هو الامتناع عن كل طعام. ففي احقاب الكنيسة الاولى كان الصوم يُفهم بالاطلاق ويقتضي الامتناع عن كل شراب حتى عن الماء غالباً . ويجب ان نتذكر ان الذبيحة الالهية كانت تقام آبان الصوم عند المساء ، فالذين يتناولون كانوا ينقطعون عن كل طعام الى هذا الوقت . ولدينا نصوص تبرهن على انه يجب الامتناع عن كل مشروب ، كما عن كل مأكول ، في الاربعينية وايام الصيامات الكبرى[١] » وكانت صرامة الصوم والقطاعة في الاجيال الاولى ، على قول ڤاكندار ، شديدة حتى اننا نستطيع ان نتساءل هل كان جميع المؤمنين يستطيعون احتمالها . فبدئياً كانت شريعة ملزمة كل شخص معتمد،وفي القديم لم يُعفَ منها لا العملة ولا الشيوخ ولا الاولاد اقله الاحداث[٢] . »
هذا مبدئياً،لكن عملياً كان يوجد بعض التفسيحات كما يتبين من بعض نصوص قول الدساتير الرسولية : « الجمعة والسبت لا تتناولوا طعاماً البتة . . . وان عجز البعض عن تحمّل هذه المحنة فليصوموا اقله من السبت حتى الاحد . » [٣]
وكذلك يقول القديس تيموثاوس الاسكندري مستنداً الى هذا المبدأ ان الصوم رسم لتذليل الجسد[٤] فعندما يكون الجسد مذللاً في المرض فلا حاجة به الى الصوم والقطاعة. وهكذا نرى هذا الاسقف القديس يعفي الشيوخ (Rép. 33e., Pitra, op cit p.637) والنساء المرضعات (Rép, 10e, Pitra, p. 632) والمرضى (Rép. 8e, Pitra, p. 631) وجميع الذين يتعذر عليهم الصوم (Rép. 31e, Pitra, 31°, op. cit p. 637)

هذا ما تمكنا من الوقوف عليه في هذا الموضوع. وليعذرنا القارئ ان لم نستطع ايفاءه حقه ، وذلك لعدم وجود مصادر كافية لدينا توقفنا على جميع اطراف هذا البحث الدقيق الواسع.

---

١) Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Jeûnes, par Dom Cabrol, col. 2485.

٢) Cf. *Dict. Arch. et Liturg.*, art. Carême, par Vacandard, col. 2151.

٣) *Const, Apost.*: *L. V, C. XVIII, XIX*; Pitra, *op. cit* p. 288.

٤) *Sa 8e réponse canonique.* Pitra, *op. cit* p. 631.

من بين كوف النافذة

مشاهدات وتأمّلات

للقس اسطفان فرحات اللبناني

٢

وكان الصباح ايضاً ذات يوم ، لما عدت فجلست الى نافذتي المذكورة . اتبين ما عكني ان اتبينه من الذين يتسنى لي ان اراهم حينئذٍ . كما رأيت غيرهم من قبل ، بحيث تتولد لي من هذه المرئيات ، لذة التفكير في جميع ادوار هذه الحياة الدنيا ، فأسري بذلك عني بعض ما بي في وحدتي ، من سوْم وضجر .

فبينا انا مجهد حافظتي ، في استرجاع ذكرى الساعات الخاليات ، ومستسلم الى تيار النفس الطماحة الى التعرّف ، الى طباع كل من ممثلي ادوار رواية هذه الحياة ، فوق مسرح هذا الوجود العجيب . واذ بصوتٍ مستعطرٍ ، قد خرق اذني فوصل الى صميم فؤادي ، حتى كاد يبكيني عليه رحمة وشفقة . وهو رجل ، عليه اهدام بالية ، يخال للرائي ان اعوامه قد نيّفت على الاربعين ، قد تملكه الجوع ، ونال منه الظمأ ، يحتقب كيساً وعى فيه فضلات المحسنين اليه . وبيده عصاً يستدل بها على سواء السبيل . وذلك لان الطبيعة ، أبت الّا ان تعامله بالجور والظلم . فقد افقدته نور بصره ، فامسى عمياً عنها ، محروماً لذة مرأى جمالها الرائع ، ولكنها قد عوضته من ذلك نور البصيرة ، فكان يستعطي اخوته البشر ، كسرة خبز ، او بعض دريهمات ، يبتاع بها ، ما يسد به الرمق ، ويزود به عنه الطوى ، فاستوقفته تحت نافذتي ، وقمت الى درجي وجئته بما استطعت ان اتخلى عنه ، وهو بعض دريهمات ، يعتان بها على شراء ما يمسك به النفس . فما ان نفحته بها ، حتى اطلق لسانه بالشكر لي والثناء عليَّ بعبارات كانت تخال اليَّ انها صادرة من صميم فؤاده ، الذي كوته الفاقة بنارها المحرقة ، وسطت عليه ذئاب الحاجة القصوى ، حتى اوشكت ان تمزّقه بانيابها الحادة ،

وما زال يدعو الى الله ليغزر بركاته عليَّ ، حتى وصل من تسياره ، الى باب احد الاغنياء ، الذي قد انعمت عليه الطبيعة بمالٍ وفير ، وما زالت تزيده ، حتى بطر في سعة عيشه وغرق في بحر ترفه وملذاته ، فتعامى عن معرفة الاخاء ، واستهتر في ازدراء البؤساء . فامسى ، والحالة هذه ، هدفاً لالسنة الناقدين ، فلا يكاد يراه من الجانب الواحد احد ممن تعرفوا اليه ، وخبروا طويته ؛ ويرى من الجانب الآخر ذلك الفقير البائس يستندي اكفّ ذوي المروءة والمعروف ، بكلام يفتت الاكباد حزناً ، حتى يتمنى لو ان الطبيعة كانت عدلت بين الاثنين بتوزيع الحظوظ ، فوهبت ذلك الفقير نور البصر ، فوق ما وهبته من نور البصيرة . وهذا الغني نور البصيرة ، فوق ما وهبته من نور البصر . اذن لما كنا نرى ان ذلك يكبو في شظف العيش ، وهذا يمرح في بحبوحته . بل كان لذاك استطاعة ان يحصّل عيشه ، ويأكل لقمته مريئاً ، لما اوتيه من ذكاء وفطنة وطيب سريرة ، دون ان يزعج الخواطر ، بصراخه واستعطائه على هذا الشكل ، الذي يلج القلب ، ويكوي الفؤاد . ولكان لهذا اعني الغني — ان يتزكى من ماله ، ولا يولي من يقرع بابه لعوز او فاقة ، قرع العصا . بل كان كلما سأله سائل اعطاه ، وكلما مرّ به بائس آساه . لانه يستطيع ان يتبين حالة البائس بمرأى العين ، ويشعر باضطراره الى بعض ما يمسك به نفسه .

واذن فقد كان وصول هذا الفقير الى باب الغني المذكور ، مدعاةً لان يُريني ما تأباه المروءة والسخاء ، وينكره الاحسان ، وينفر منه العطف ، وتستهجنه الشفقة ، وتمجه الانسانية . فما كاد يقرع عليه بابه ، ويطلب منه احساناً ، حتى ظهر عليه بملابسه الفاخرة ، متشائماً بصباحه ، بادياً علامة الاشمئزاز من مرأى اطماره البالية . ثم احتدم عليه غضباً ، ورفع عقيرته عليه بالتقريع والشتم . واذن فكان ان ذهب هذا الفقير متعثراً في اذيال الخيبة ، كما ذهب نظراؤه عن باب ذلك الغني ، وقد انعم الحزن قلبه حتى طفح به فتدفقت فضلاته من عينيه ، وهو يسأل الله ان يليّن قلوب اخوته البشر الموسرين ، على ذوي الفاقة ، بكلمات تصحبها تأوهات تقطر حزناً ، وزفرات ملؤهنّ الاسى والشجو . قائلاً : اللهم انت موئل البائس ، ومرجع اليائس ، اليك ارفع

تضرعاتي ، لكي تعدل في توزيع الحظوظ . لانك مصدر العدل ، ومنبع الرحمة والاحسان . وما زال ينطق بمثل هذه العبارات فتخرق الفضاء الى الخالق الاسمى ، حتى توارى عني ، وراء احدى البنايات الفخمة . الا ان صدى صراخه وتضرعاته ، لم يزل يرنّ في اذني ، ومثاله مصوّر نصب عيني ، فلم يسعني ؛ والحالة هذه ؛ الّا ان ذرفت دمعة لم اعلم ما هي ، ولا ماذا اسمّيها ، ادمعة حنان على الفقير ، ام دمعة خوف من القدير ؟ ام هي تلك الدمعة التي يستذرفها المرء عند مـا يرى مثل هذه المأساة المحزنة ، بحيث لا يمالك ان يحجبها عندئذٍ ضمن مآقيه . وكيفما كان من امرها ، فاني اعلم انها دمعة ، يرشحها القلب المكلوم ، وان لم يتعمد ذلك ، بل تكاد تكون في الانسان طبعاً ، فهي كالعصير الذي تنضحه الجفنة عند ما تقلّم . واذن فهي في الجفنة دمعة القلم ، وفي الانسان دمعة الكلم . فقلت : كفاني ما رأيت في هذا الصباح ، ممـا اثار شجوني ، وضرّم في فؤادي نار الاسى . فـاخذت يراعتي ، وخلوت بنفسي ، وكتبت لك ، ايهـا القارئ الكريم ، هذه الكلمة التي تقرأها الآن ، وهي تكاد تكون صورة مصغّرة لعموم الفقراء البائسين ؛ اللهم من دون العمى ؛ مع الكثيرين من الاغنياء في هذه البلاد ، الذين لم يفهموا للرحمة معنى ، ولا للشفقة اسماً .

قلت الكثيرين ، ولم اقل الكل استثناء لبعضهم ، الذين ما زالوا يرزقون بالبائس ، ويعطفون عليه ؛ يؤلمهم بكاؤه ، ويلعجهم صراخه . فلهؤلاء الاقلية ، الف شكر واحترام . ويا ليت جميع البشر يعلمون انهم كلهم اخوة ، اذاً لما كنا نسمع مثل هذا الصراخ الذي يستذرف العبرات ، ويدمي الافئدة . وانهم بالحقيقة لكذلك ، لو كانوا يدرون . لانهم جبلوا من طينة واحدة ، وهم من خلق واحد ، وهو القدير ، وقد دعاهم المخلص اخوة : كلكم اخوة . ولكن قد اظلمت قلوب الكثيرين ، وخلت من كل مسكة من الحنان على الفقير . وصمّت آذانهم عن سماع صراخه المر .

واذن فهؤلاء هم الذين يصدق فيهم معنى قول المخلص : لهم اعين ، ولا ينظرون ؛ وقلوب ، ولا يفهمون ؛ وآذان ، ولا يسمعون . ومن تحقق فيهم معنى هذا الكلام المقدس ، كانوا ، ولا شك ، مرذولين من الله ومن الناس .

جولة في المجلات

الحج الاحمر او الرياء البلشفيكي في مكة –
اهم المقالات الشرقية في مجلات الاستشراق

الحج الاحمر او الرياء البلشفيكي في مكة

جاء في مجلة الجمعية الالمانية للمعارف الاسلامية في برلين ، (يناير ١٩٣٢ ، ص ١١٢) ، بتوقيع اياس إسحاقي عضو مجلس الشورى الاسلامي المسكوبي العام الخ . . .

في العام الماضي ، على ايام قربان بيرم ، اخذت لجنة أوديل اورال تحمل حملاتها محتجة على الاضطهاد الذي اوقعته الحكومة البلشفية بالدين الاسلامي . وان هذه المسألة لا تهمّ المسلمين القاطنين في ربوع البلاد المسكوبية فقط ، ولكن سائر المسلمين الذين سكنوا البلاد المسكوبية على العهد القيصري وتشتت شملهم في انحاء العالم بعد سقوط الامبراطور . ففكرت اللجنة المذكورة ان تتناصر وسائر اللجن الاسلامية المكوّنة في معسكر المهجر وتشدّ بها الازر لتقاوم الشيوعية ؛ وعزمت على ارسال وفد الى مكة من قبلها ، ومن قبل سائر اللجن الاسلامية ، غرضه تنبيه الرأي العام الإسلامي في العالم الى حالة اليأس الواقع فيه المسلمون في بلاد السوفييت . ودار الحديث بينها وبين ممثلي اللجن الاسلامية في البلاد الاجنبية ، وحالت الظروف دون نجاح المقصد برمته ، فاخذت لجنة أوديل اورال على عاتقها وحدها ، مهمة العمل في سبيل المطلوب ؛ ولما لم يكن بوسعها ان تقوم بنفقات بعثة رجال مندوبين من طرفها الى البلاد الاسلامية ، قصرت جهودها على مواصلة حملتها بطرق البريد والبرق فحسب .

يوما عشت ان اثمرت مساعيها ، وكثر عدد الذين عطفوا عليها من زعماء الدول ، ومنهم البابا ورئيس اساقفة كنتربري . وتصدّت الصحافة الاوربية لتلك العواطف فشجعت اللجنة على مواصلة عملها ، وحولت انظار العالم الى المسألة الدينية في بلاد السوفييت ، فاضطرت البلاشفة الى تخفيف وطأتهم على جبهة قتالهم ضد المسلمين : كانوا قد اغلقوا بعض المساجد ، فرجعوا وفتحوها ، وكانوا قد نفوا الى سولوفكي بعض رجال الدين المسلمين من علماء ومؤذنين فاطلقوا سراحهم وردوهم الى ربطهم .

ولم يقف البلشفيك عند ذلك الحد ، فمضوا ينهكون قوة اجتماع لجنة اوديل اورال بالوسائل الغير المتادة . واليك مثلاً على ذلك ، البلاغ الذي اصدره من الحجاز مراسل الملي يول (Milli Yol) :

في ايام الحج الكبرى في مكة ، نُشرت اعلانات الاحتجاج على سياسة البلشفيك المناوئة للاسلام ، ووزعت في البلد بين الحجاج ، بعناية لجنة اوديل اورال . فاثرت تأثيراً شديداً في نفوس المسلمين ، حتى صارت سبباً لاقامة حفلة دينية امام الكعبة سألوا فيها الله النجدة على اعداء المسلمين ، وعقدوا العزائم ، عند ختام الصلاة ، على ان يطلبوا من ابن سعود حارس الحرمين القبض على ناصية الامر وردّ هجمات السوفييت عن الدين الاسلامي في بلاد المسكوب .

وفيما هم يتحادثون ويتشاورون اذ بصوت صفير متواصل ، وعجيج سيارة تخترق ازقة مكة ، وعليها الاعلام الحمر المصورة فيها المطرقة والمنجل شعار الشيوعية . وكان يركبها نفران احدهما في منتصف العمر وهو « ناظر توراكولوف » ممثل السوفييت في الحجاز ، وعضو الكومينترن (دائرة الشيوعية الدولية) واحد اركان الجوبيو (بوليس الدولة السياسي) ؛ والآخر « ابو راشد قاضي ابراهيموف » عضو في الادارة الدينية الاسلامية على عهد القيصر . جاء السيد توراكولوف ليقوم بفرائض الحج كسائر المسلمين ، فاشترك بالصلاة العامة ، وكل مراسيم الزيارة ، وسافر من ثم الى المدينة وصلى امام قبر النبي . وتحدث في مكة وفي المدينة الى اعيان الحجاج من سكان جاوى والهند وتونس والجزائر ... وكلمهم عن سياسة الانكليز نحو المسلمين في الهند ، وعن

سياسة فرنسة نحوهم في تونس وفي الجزائر ، وعن سياسة هولاندة نحوهم في جاوى ، وذمّ تلك السياسة وسوّد صحائفها ، واعرب عن آماله بان مسلمي تلك البلاد باستنادهم الى الدولة السوفييتية ، سوف يخلعون عنهم ، قريباً ، نير الاجانب ؛ وفتح حقائبه ووزع مالًا كثيرًا ليُصرف في البلاد المذكورة آنفاً سدًّا لحوائج الديانة الاسلامية فيها .

ولما سُئل ممثل السوفييت عن اخبار الاضطهاد الديني في بلاد المسكوب ، قهقه وقال : انما هي اراجيف واكاذيب ينشرها الفرنسيس والانكليز تحاملًا على البلشفية . وسُئل ايضاً : ما بال الحجاج الروس انقطعوا عن زيارة الحرمين ، وقد كان عددهم عديدًا في الماضي . فاجاب على البديهة : ان هؤلاء الحجاج لا يمكنهم السفر من روسية الا عن طريق البحر وان المضايق ، الدردنيل والبوسفور ، والقسطنطينية ذاتها لا تزال في يد الانكليز والفرنسيس ، فلا سبيل الى عبور البحر لسفينة تحمل الحجاج . ولم يكن الامر كذلك في الماضي لما كانت المضايق في قبضة تركية ...

فتصوّر كذب البلشفيك وجسارتهم !

وعلى هذا النسق ينصبون فخاخهم ليصطادوا المسلمين حتى في بلاد الحج ، فلا تسأل عن سعيهم ودسائسهم في سائر البلاد العربية ، ويا ليتنا لم نختبر عنهم الا ما يبلغ الينا من مكائدهم في البلاد البعيدة عنا ، ولكن حوادث البوليس اليومية، وجميع الاضطرابات في سورية ولبنان منذ سنوات عدة ، تشهد ان لمندوبي الشيوعية يدًا فيها ، ونشرت الجرائد في حينها اخبار العلاقات بين السوفييت وبين هذا او ذاك من الثوار (١) . وقد اهتمّ اولياء الامر للخطر الخفي المهدّد راحة البلاد من دسّ سمّ الشيوعية في قلوب الشعب ، والاستفادة من كل سانحة لاثارة العامة على ارباب الرساميل ومحافظي النظام وتلوين حزب المتطرفين من اهل السياسة بلون الوطنية الصادقة ومناصرة الدين. فنتمنى ان تبلغ الى الناس اخبار دعاة البلشفية في مكة والمدينة ، فلا ينخدع الجهال باقوال الكذبة ولا يغتروا بغرورهم.

ف . ت .

١) راجع المشرق ١٩٢٨ ، مجلة المجلات : ابن عمنا سادول ، ص ٦٦

اهم المقالات الشرقية في مجلات الاستشراق

الآداب الشرقية LITTERAE ORIENTALES. *Heft 49, Janvier 1932* – Leipzig, Otto Harrassowitz

في هذا الجزء بحث مهم للاستاذ وسندونك (O. G. von Wesendonk) في استعمال اللغة الآرامية على عهد الدولة الفارسية القديمة . وهو يستند في ذلك الى قطع البردي الآرامية المكتشفة في إلفنتين (مصر) والراقية الى القرن الخامس قبل المسيح . يبحث الكاتب في كل ذلك ويبين ان الآرامية كانت مستعملة في المملكة الفارسية منذ عهد داريوس .

الاكروبول L'ACROPOLE, *revue du monde hellénique*, t. VI, 3, juillet-sept. 1931

يتضمن هذا العدد مقالة مغفلة عن مسألة قبرس قد تظهر ذات وجهة خاصة لبعض المطلعين ، ولكنها مفيدة بما فيها من المعلومات الدقيقة عن احوال تلك الجزيرة (ص ٢١٨ ـ ٢٢٨) ومما يستحق الذكر ثبات القبرسيين في مطالبتهم التي بدأوا بها منذ السنة ١٨٧٨ ، ولا يزالون يغتنمون الفرص للعودة اليها . ثم هناك تبسط مفيد في اسباب هذه المطالبات وطريقة الوصول الى تحقيق شيء منها .

آسية الفرنسوية L'ASIE FRANÇAISE, *Décembre* 1931

J. de la Roche, *Notes sur les débuts de notre occupation du territoire des Alaouites.*

معلومات عن العهد الاول لاحتلالنا بلاد العلويين .

كاتب هذا المقال اول حاكم فرنسوي للاذقية ، وضع فيه ذكريات شخصية مفيدة ولذيذة عن عهد كان الجميع يرونه من خلال اجمل الالوان وازهاها .

Lieutenants de Pindra d'Ambelle et de Brébisson, *Les cavaliers druses et leurs chevaux.*

فرسان الدروز وخيولهم

هو درس دقيق مستوفي الشروط ، قام به ضابطان من الاختصاصيين بالموضوع فافادا كل الافادة .

مطبوعات شرقية جديدة

Le diwân d'al-Hallâg, *essai de reconstitution, édition et traduction par* **Louis Massignon** - *Extrait du Journal Asiatique, Janv.-Mars* 1931 - *Paris, Geuthner*, 1931.

ديوان الحلّاج

بعد ان نشر المؤلّف ذاك الأثر الفخم في حياة الحلّاج (اكثر من ١٤٠٠ صفحة) اخذ يتتبّع جميع متروكاتـه، فطبع سابقاً ما ورد عنه من الفقرات النثرية، وها هو اليوم ينشر ديوانه الشعري . وقد جمع مقطّعاته المتفرّقة من نحو مائة مؤلّف بين مخطوط ومطبوع، واشار الى مصادرهـا جميعاً، وذكر اختلاف الروايات فيها، ونقد صحة نسبتها، مقرّاً البعض، نافياً الآخر. حتى ان من يطالع هذا الديوان لا يتمالك الاعجاب بالاستاذ ماسّينيون وبمـا اظهره من التضلّع والاطلاع في اقراره تلك النصوص الصوفية المحفوفة بالغموض، وخصوصاً في الترجمة الفرنسوية التي اردفه بها. وان المطالع، اذ يقف على المقاطع الشعرية التي يوضح بهـا الحلاج اتحـاده بالله بل معادلته لـه (في الصفحات ٤٦، ٥٢ و ٧٧، ٨٢ . . .) يفهم الاسباب التي دفعت بالمجلس الاسلامي الى ان اصدر ذاك الحكم على الصوفي فصُلب ثم أُحرق في بغداد سنة ٩٢٢. هـ. ل.

Max Freiherr von Oppenheim: Der Tell Halaf. Eine neue Kultur im ältesten Mesopotamien. 131 *fig., pl. dont* 3 *color.,* 2 *cartes.* 8° *de* 276 *pp. Leipzig, Brockhaus*, 1931.

مدينة جديدة في بلاد ما بين النهرين القديمة

يعلم قرّاؤنا الحلبيّون الذين زاروا متحف مدينتهم ان فيه عـدداً كبيراً من الآثار المهمّة الجزيلة الفائدة لدرس تاريخ سورية الشمالية وفنّها وديانتهـا . وقد اكتشفت هذه الآثار قرب رأس العين، على الخابور، في تلّ يُعرف اليوم بتلّ خلف . وقـد كان البارون اوپنهيم ـــ مَن عرفه كثير من السوريين، حتى قبل الحرب، رائداً وسياسياً ـــ بدأ سنة ١٩١١ بحفريات كانت تعـد بالنتـائج الحسنة . غير انها اوقفت زمن الحرب، وجمعت الآثار المكتشفة

فوُضعت في المنزل الذي كانت تسكنه البعثة في تلك الجهة . ثم حصل مع الاتراك من المعارك ما هدم المنزل ، ودفن جميع المكتشفات . الى ان كانت السنة ١٩٢٧ ، فشاءت السلطة الافرنسية ان تسمح للبارون بمتابعة اعماله وفقاً لشروط تُقسم بموجبها الآثار المكتشفة والتي ستُكتشف بين الفريقين . فباشر البارون اعماله مستخرجاً ما دفنته القنابل ، مفتشاً عن القطع الضائعة ، ومتابعاً الحفر . حتى انهى مهمته فقسم الآثار بينه وبين متحف حلب ، وزاد المتحفَ ايضاً قوالب عمّا دخل في حصّته هو من الآثار . فيمكننا ، والحالة هذه ، ان نعتبر كتاب البارون المذكور دليلًا الى زيارة اروقة متحف حلب القائم اليوم في بنايته الجديدة . اما الآثار التي كانت من نصيب البارون ، مع قوالب الآثار المحفوظة في متحف حلب ، فقد نُقلت الى برلين وأُقيم لها متحف خاصّ دُعي متحف تلّ خلف (*Tell-Halaf Museum*) أسسه البارون نفسه وفكّر بانشاء اعتماد خاصّ يُرصد للابحاث المُقبلة في الموضوع . وهي فكرة صُرف الاهتمام عنها ، في زعم البعض ، فدخلت في خبر كان ، بسبب الازمة العالمية الحاضرة ، بل يُقال ان تلك الآثار نفسها ستُباع في المانية او في اميركة . . .

ومهما يكن من امر فان خرائب التلّ الممتدّة على مساحة لا تقلّ عن ستين هكتاراً ، ترتفع الى علوّ ٢٦ متراً عن سطح الخابور . وكان قائماً عند هذا التلّ برجٌ ، ثم قصر اشوري ، ثم قصر للسكن وهيكل . وقد ميّز الاختصاصيون في تلك الآثار ثلاثة عصور مهمة لا يزال تحديد زمانها عرضة للحدس والتخمين ، على الرغم من ان الرائد الالماني الشهير هرزفلد (Herzfeld) عرض في الموضوع نظراتٍ اعتبرها يقينية ، فاخذ بها البارون دون تردّد . هذا ولا يتسع لنا المجال للتدقيق في الامر فان ذلك يتطلب كرّاساً كاملًا تستند فيه الابحاث الى الرسوم والصور . واننا نشير ، كتكملة لآثار التلّ المذكور ، الى انه في جبلة البيضا ، الى شمال تلّ خلف ، اظهرت الحفريّات آثاراً اقدم من الاولى . ولكن هنا ايضاً بالغ العلماء في تأخير عهدها .

والكتاب رخيص الثمن يباع بـ ١٤ مركاً فقط ، وهو حسن التجليد قويّه ، جميل الصور عديدها . فننصح جميع الحلبيين وسائر السوريين الذين

يهتمون بماضي بلادهم ، ان يشتروه ، ويطلعوا عليه ، وان لم يكن ذلك الّا لدرس ما في اروقة متحفهم من الآثار المختلفة من البرونز والعاج والذهب وغيرها وكلّها مصوّرة في الكتاب. س. ر

André Bonnichon : La conversion au Christianisme de l'indigène musulman algérien et ses effets juridiques. *in-8° du 153 pp. - Librairie du Recueil Sirey, Paris,* 1931.

تنصّر المسلم الجزائري ، ونتائجه الحقوقية

امر معلوم عن الاسلام ان الدين والشريعة يكوّنان فيه عنصرًا واحدًا حتى ان لفظة شريعة تُطلق على قواعد معاملات العباد نحو خالقهم ، ومعاملاتهم فيما بينهم على حد سواء . فكان من موجبات هذا المبدأ ان كل من لا يدين بالدين المحمدي يكون خارجًا عن الشريعة الاسلامية غير خاضع لها ، بل لشريعته الخاصة . الّا ان السلطان الاسلامي لم يعترف قط بذلك في وقت من الاوقات ، بل اخضع سائر الطوائف الغير المسلمة ، ومنها الطوائف المسيحية ، للشرع الاسلامي باعتبار هذه الطوائف اهل ذمّة . وهو امر كان من مقتضيات السلطان الاسلامي . فاذا كان السلطان في بلاد مسلمة لسلطة غير اسلامية ، فهل يبقى الامر على حاله ام يتحتّم الرجوع الى الاصل ، وهو عدم الخضوع للشريعة ذات الصبغة الدينية ، الّا من قِبَل تباع الدين الاسلامي ؟

هذه مسألة ليست نظرية فحسب ، بل لها وجهها العملي . وهذا الوجه العملي ظهر في بعض البلدان الاسلامية الواقعة تحت سلطة الدول الاوربية كبلاد الجزائر وغيرها . ففي هذه البلاد ، لايّ شريعة يخضع المسيحي او المسلم الذي يعتنق النصرانية ، وقد اصبح المتنصرون في الجزائر عديدين ؟

سعت السلطة الفرنسوية في ان تحدّد اختصاص القوانين ، فقررت منذ آن بعيد ان المسلمين يبقون خاضعين للشريعة الاسلامية ، وان اليهود يُعتبرون افرنسيين تابعين للقانون الافرنسي ، وان المسلم الذي يتجنس بالجنسية الافرنسية يضحي تابعًا للقانون الافرنسي ايضًا . ولكنها لم تتنبه لحالة رابعة هي الحالة التي ذكرناها : حالة الجزائري المعتنق الدين المسيحي والغير المتجنس بالجنسية

الافرنسية . فلأي شريعة او قانون يخضع ؟ اي قانون او شريعة يحدّد حقوقه وواجباته ؟

هذه النقطة هي موضوع البحث في كتاب السيد اندره بونيشون . ولا تخفى صعوبة حلّها . وقد قسم السيد بونيشون مؤلّفه الى خمسة ابواب فصّل فيها المسألة تفصيلاً دقيقاً ، لا يتسع لنا المقام لشرحه في كلمتنا هذه . وهو ينمّ عن مقدرة حقوقية ، وملكة تامة للقضية المبحوثة . والنتيجة التي توصل اليها المؤلّف هي انه يجب على السلطة الافرنسية ان تتخذ تدابير لأجل وضع قانون خاصّ للمتنصرين الجزائريين . وبانتظار هذا القانون ، يرى المؤلف انه يجب ان يطبّق عليهم القانون الافرنسي .

اميل تيان
استاذ في معهد الحقوق الافرنسي ببيروت

E. B. Allo, O. P. : Plaies d'Europe et baumes du Gange. 237 *pp. Prix : 15 f. Les éditions du Cerf. Juvisy.*

جراحات اوربة وبلسم الگانج .

مؤلف هذا الكتاب استاذ العلوم الدينية في جامعة فريبورغ (سويسرة) ، راقب حركة بعض المعاصرين من مؤلّفي اوربة ، اذ يدّعون انهم اكتشفوا في تصوّف الشرق الاقصى بلسماً للجراحات الحاضرة . والغريب أنهم يعرضون ، ذلك باسم تاريخ الديانات فيؤخذ بها غير المتضلّعين من القرّاء . وهم يتعرّضون ، في ابحاثهم ، لاكثر الكنائس المنفصلة عن الكثلكة ، مقابلين بينها وبين ما يرون في الهند من الكمال الصوفي . فاراد المؤلّف ان يصلح من تلك المزاعم ويحذّر المطالعين مما تحويه من المغالط والمزالق . لا شكّ في ان الهند التي يعجب بها هؤلاء المؤلفون جديرة بالاهتمام ، لأنها كانت لمناطق الشرق الاقصى ما كانته اليونان لبلاد اوربة . ولكن ايّ هند يقصدون في ابحاثهم ؟ اهي الهند التقليدية البرهمية والبوذية ، وهي هند نظريّة مجرّدة عن الامور الواقعية ، أم الهند الشعبية الحقيقية التي لا تزال ، علم رغم تعاليم الاولى ، متعلّقة تعلّقاً مادياً غريباً بالوثنية وما اليها من خرافات واوهام ؟ وهو تمييز وافر الاهمية يحوّر نقطة

البحث كل التحوير . فانّ افضل ما في هذه الهند من عناصر سامية ، عندما تتجه نحو التفتيش عن الاله الواحد ، تكون ابعد من ان تفيدنا شيئاً ، بل انها تشعر بعاطفة حسد نحو الانجيل وابنائه . وهكذا تُصبح تلك البلاد ، التي كثيراً ما يعرضونها غريبة عجيبة ، معروفة لدينا هيّنة الخطر علينا . وعلى الجملة فالكتاب حسن الاسلوب والترتيب ، متين التفكير ، يلفت النظر لكونه افضل ما أُلّف في الموضوع واجدره بالقراءة والنشر . ج . ل .

Hérédités et races - *Groupe lyonnais d'études médicales, philosophiques et biologiques. XI-278 pp. Prix : 15 f. Les éditions du Cerf à Juvisy.*

الوراثات والعناصر البشرية

تألفت ، لستة اعوام خلت ، لجنة من مفكّري مدينة ليون غايتها التعاون والتضامن في الابحاث العلمية ، فتدرس كلّ سنة موضوعاً واحداً مهمًّا وتجتهد في ان تعرضه على اكثر ما يمكن من الدقة والوضوح . وامامنا اليوم المجلّد الجامع ابحاث السنة ١٩٢٩ــ١٩٣٠ ، وفيه عشرة ابحاث تدخل كلها في موضوع الوراثة وما اليه من طرق الوراثة وانظمتها ، ووراثة الاخلاق ، والوراثة والأمراض ، وعلم النفس ، والعمران ، والادبيّات ، والعناصر البشرية السابقة لزمن التاريخ والحالية ، والمشكلة الحيويّة والنفسية في الشعوب ، والمشكلة الاجتماعية والعنصرية ، ثم البحث في الجنس البشري . وكلها ابحاث من الخطورة بمكان كما يظهر من تعداد عناوينها ، قام بها اختصاصيّون مشهورون فبرزت بوضوح ودقة وترتيب لا مزيد وراءها ، وهي منصرفة في جميعها الى نظرية تليق بالشخصية الانسانية . ج . ل .

Anatole de Monzie : Petit manuel de la Russie nouvelle. *Edition revue et corrigée. Paris, 1931. Firmin-Didot et Cie. Prix : 10 f.*

كتاب صغير عن روسية الجديدة

طالما رغب المؤلف في ان يُكتب عن مناطق اوربة الجديدة ادلّة دقيقة الدرس واضحة التأليف على طريقة ادلّة بديكر المشهورة ، راجياً بذلك ان

يقوم الاختصاصيون باصلاح ما تسرّب من الخطأ الى الجمهور عن طريق الكتبة القليلي الاطلاع . فكان له ذلك في ما خصّ روسية الجديدة ، اذ باشر بنفسه تأليف هذا الدليل وقال خاتماً : «ارجو ان اكون بذلت جهدي بعمل واحدة من تلك المسودّات التي يكتبها الانسان بروح المسالمة والطمأنينة فيأتي المستقبل فيحرّرها من الاخطاء ويبيّضها.»

وقد بدأ كتابه باظهار الاسباب القديمة للثورة ، منذ عهد كاترين الثانية . ثم لخّص تاريخ روسية بين سقوط الامبراطورية وحكم السوڤييت ، وما جرّ اليه من حروب اهلية ، فاقرار النظام الحالي . بعد ذلك خصّ قسماً ثانياً بجغرافية البلاد الطبيعية والادارية اردفها ببحث في الحالة الاقتصادية . وهو يرمي في كل ذلك الى ان يصف الحالة كما هي ، ولا يهمّه ان يحكم عليها او يستنتج منها . فيرى ان الثورة الروسية ، على كونها ظهرت جديدة في تلك البلاد ، قد استندت كثيرًا الى ما تقدّمها من الظواهر . وهو لا يريد ان يشعر نحوها بالخوف ولا بالبغض . ولكنه لا يتمالك من القول (ص ٣٠٧) ان اضطهادها للاديان ذاك الاضطهاد الغريب ، وتضييقها على الحرية الشخصية ذاك التضييق الجائر ، يحيّر جميع المعجبين بها المتساهلين معها ، فيزلزل موقفهم . . .

ج. ل.

Musée national syrien de Damas, *édité à l'occasion de l'Exposition coloniale et des pays d'Outre-mer. in-8°*, 1931, *Damas, imprimerie Fata-el-Arab.*

المتحف السوري الوطني الدمشقي

تقرّر انشاء هذا المتحف في دمشق منذ السنة ١٩١٩ .وأُفرد له محلّ لائق في المدرسة العادلية . ولكنه لم يصبح ذا اهمية تذكر الّا في السنة ١٩٢٥ . ونعمًا فعل ناشر هذا الكتيّب فانه سرد ما في المتحف من الآثار الثمينة التي نرجو ان تزداد عددًا وقيمةً ، فيزداد الكتيّب فائدة ولذة في طبعة ثانية .

الاسرة المسيحية

للسيد فريديان جيانيني

بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٢

هي الرسالة الرعائية ، التي وجهها ممثل الحبر الاعظم بيننا ، الى الاكليروس والشعب اللاتيني في نيابة حلب الرسولية ، بمناسبة الصوم الاربعيني.

لا يخفى ان العائلة هي العنصر الاولي المجتمع البشري ، وهو الذي يتهدده الثوار واخصهم البلشفيك في زماننا . فانهم يرخون قيد الزواج ويجعلون الاتحاد الزوجي عقيماً ، ويحولون دون تربية البنين على يد ابويهم التربية الدينية اللازمة . فارسل البابا بيوس الحادي عشر في ٣١ كانون الاول ١٩٢٩ براءةً شأنها تربية الاحداث ، وفي ٣١ كانون الاول ١٩٣٠ براءةً اخرى موضوعها الزواج المسيحي. فاستنبط القاصد الرسولي من هاتين البراءتين ومن غيرهما هذه الرسالة التي دعا فيها المؤمنين الى التمسك بالمبادي القويمة والتعليم الكاثوليكي فيما يخص الاسرة ، واستحثهم على اقتفاء مثال العائلات الاعلى اعني العائلة المقدسة في الناصرة. ف . ت .

تفسير المنار

تأليف السيد محمد رشيد رضا

الجزء العاشر : ٤٠×٥٩١ ص . بقطع ٨ - مطبعة المنار ، مصر ، ١٩٣١

هو الجزء العاشر من تفسير القرآن المعروف « بتفسير المنار » ، اوله الآية ٤١ من السورة الثامنة (الانفال) وآخره الآية ٩٣ من السورة التاسعة (التوبة). وقد وصفنا الجزء السابق منه في المشرق (٢٧ [١٩٢٩] ٣١٥) فليُراجع ، لأن ذاك الوصف ينطبق على الجزء الحالي ايضاً . فان المفسر لم يغيّر شيئاً في اسلوبه العام ، وهو الاسلوب المنسوب الى الشيخ محمد عبده والسلفيَّة . ويرى المطالع في هذا الجزء كثيراً من الملاحظات والآراء والاحكام مركومة جزافاً ولا صلة قريبة بينها وبين النصّ القرآني ، كالمقالات السياسية والقومية والحملات على الاجانب . واغرب من كل هذا ذاك الميل الساذج المفكّه للتوفيق بين

القرآن واحدث الاكتشافات العلمية العصرية التي لم تكن لتمرّ بخاطر النبي ، ولم يكن ليتوهّم امكان وجودها. وفي الكتاب فهارس عديدة حسنة . ويأمل المؤلف انها. تفسيره في اربع او خمس سنوات. م. ل.

قصص وادب وفكاهة

عنيت بنشره ادارة الهلال

١٦٣ ص . كبيرة – مطبعة الهلال مصر ، ١٩٣١

مجموعة فكاهية مسلّية بما فيها من قصص ونكات ونوادر عن بعض الادباء ، تزينها الصور العديدة . والقصص على قسمين : بعضها معرّب عن اللغات الاجنبية من انكليزية وفرنسية وفارسية ، وبعضها موضوع رأساً بالعربية. وقد روعي في اكثرها متطلّبات المحيط الشرقي قديماً كان او حديثاً . فاتى الكتاب عملاً مشكوراً لتعزيز فنّ «القصص القصيرة» ، او «الحكايات» في الادب العربي . ولاسيما بما فيه من التحليل الدقيق ، ووصف العواطف المتضاربة . الّا ان هذا التحليل قد لا يكون ذا غاية واضحة في بعض الاحيان ، وقد تشذّ غايته ، في احيان اخرى ، عن غاية «الهلال» الروحية السامية التي وضعها نصب عينيه ، في مطلع سنته الجديدة ، فقال : «ان الهلال يطمح – بين ما يطمح اليه – ان يكون احد حاملي رسالة التجديد الروحي . فهذا في نظرنا أمس ما يحتاج اليه عالمنا المريض من صنوف العلاج في هذه الايام العصيبة.»[1]

تقويم كنيسة السيدة الكبرى في بيت شباب لسنة ١٩٣٢

طُبع بعناية ابراهيم نجا ابو كحله العنيسي

نحو ٢٠٠ ص . متوسطة – مطبعة الدبور ، بيروت ، ١٩٣١

هي السنة الاولى لهذا التقويم المفيد عُني بنشره وكيل وقف الكنيسة فجمع فيه ، الى جانب ايام السنة ، معلومات تاريخية عن لبنان عامة ، وبيت شباب خاصّة ، وعن سورية ، ودولة العلويين ، وجبل الدروز . واردفها بحكايات

١) الهلال : السنة ٤٠ : العدد ١ (نوفمبر ١٩٣١ ، ص : ١١)

وفكاهات ، وشذرات ، وابيات شعرية يطالعها القارئ بارتياح . وقد ارصد ريع التقويم لمساعدة الكنيسة المذكورة.

ذكرى الفؤاد

16 × ٩٦ ص. متوسطة – مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣١

مجموعة مؤثرة تحمل بين صدورها تنهدات أب مسكين ، وأنات ام ثكلى ، فُجعا بولدهما في الثلاثين من عمره ، وفي بلاد الغربة. فسالت دموعهما حتى اسالت الدموع ، وتفطّر قلباهما حتى تفطّرت لهما القلوب . هو المرحوم الدكتور فؤاد جمجع الطبيب العسكري العراقي لموقع البصرة ، قضى على اثر صدمة سيارة فاسف عارفوه على ذكائه وعلمه وتقواه . وقد جُمع في هذا الكتيّب نبذة عن حياته واخلاقه ، وما قيل في مأتمه من المراثي، مع ما أرسل الى والده من كتب التعزية التي نؤمل ان تقع بلسماً مسكناً على جرحه الدامي.

ف. ا. ب.

عاطفة حبّ واخلاص

٣٠ ص . صغيرة – مطبعة دير سيدة المعونات (جبيل) ، ١٩٣٢

هي قصيدة متعدّدة الاناشيد رفعتها مطبعة دير سيدة المعونات جبيل (لبنان) الى قدس الاب مرتينوس طربيه، الرئيس العام على الرهبنة اللبنانية، والى قدس الاب اغناطيوس التنوري،تهنئةً بابابهما للدرة الثالثة من عاصمة الكثلكة. وقد تفننت المطبعة بتنسيق المقاطع الشعرية والنقوش على طرق مختلفة دلّت على عنايتها واهتمامها.

* قائمة مطبوعات مكتبة الهلال * بالفجالة ، بمصر لصاحبيها ابراهيم زيدان وولده. لسنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ . احتوت الكثير من الكتب الادبية والعلمية والتاريخية والدينية. . .

* قائمة مطبوعات دار الهلال * جدول خاصّ لما ظهر بالطبع في دار الهلال ، لمؤسسه المرحوم جرجي زيدان او لغيره من الادباء. وكلها تقريباً من الكتب المصرية.

* فهرس مكتبة المنار * فهرس عامّ لمطبوعات المنار واكثرها من الكتب الدينية الاسلامية. العنوان: دار المنار ، مصر.

اهم حوادث الشرق في شهر

١٥ كانون الثاني — ١٥ شباط ١٩٣٢

لبنان — تمّ احصاء سكان الجمهورية اللبنانية جميعهم في اقل من يوم واحد ، في ٣١ ك٢ ، من الساعة السادسة صباحاً الى منتصف الليل. اما النتيجة فلم تُعرف بعد لأن الحكومة مهتمة بالتحقيق عن كيفية سير العمليات.

* توفي مفتي الطائفة الاسلامية في بيروت الشيخ مصطفى نجا في ٣١ ك٢. وانتخب مكانه الشيخ توفيق خالد.

* زار البطريرك الماروني المفوض السامي في بيروت ،فاستقبل استقبالاً فخماً.

* زار لبنان اسماعيل صدقي باشا،رئيس الوزارة المصرية ، قادماً من فلسطين فحلّ ضيفاً على فخامة المفوض السامي ليلة واحدة.

سورية — توالت حوادث الشغب والاضراب في حلب ودمشق. فاصدر المفوض السامي قانوناً جديداً يفرض عقوبات شديدة على مقلقي راحة الناس والمخلين بالامن العام. وقد أُلغيت حفلة عيد الفطر الرسمية في سراي دمشق.

جبل الدروز — في ٢ شباط وصل الى السويداء الجنرال ماسيت ، حاكم جبل الدروز الجديد بدلاً من الجنرال كليان غرانكور المستقيل.

مصر — عُقد مؤتمر الصحافة اللاتينية في القاهرة بدعوة من « الاهرام » فاشترك فيه نحو ٦٠ عضواً. وبعد ان فرغوا من اعمالهم ، زاروا لبنان وسورية.

تركيه — اصدرت الحكومة التركية قانوناً بمجازاة كل من يدرس اللغة التركية بالحروف العربية سراً كان او جهراً.

* بُدئ في ٢٢ ك ٢ بتلاوة القرآن ، لاول مرة ، باللغة التركية.

الهند — لا يزال الموقف حرجاً ، وقد تفاقم حكم الارهاب ، وتكاثر عدد المعتقلين ، واخذت المعارك تنشب بين البوليس والجمهور.